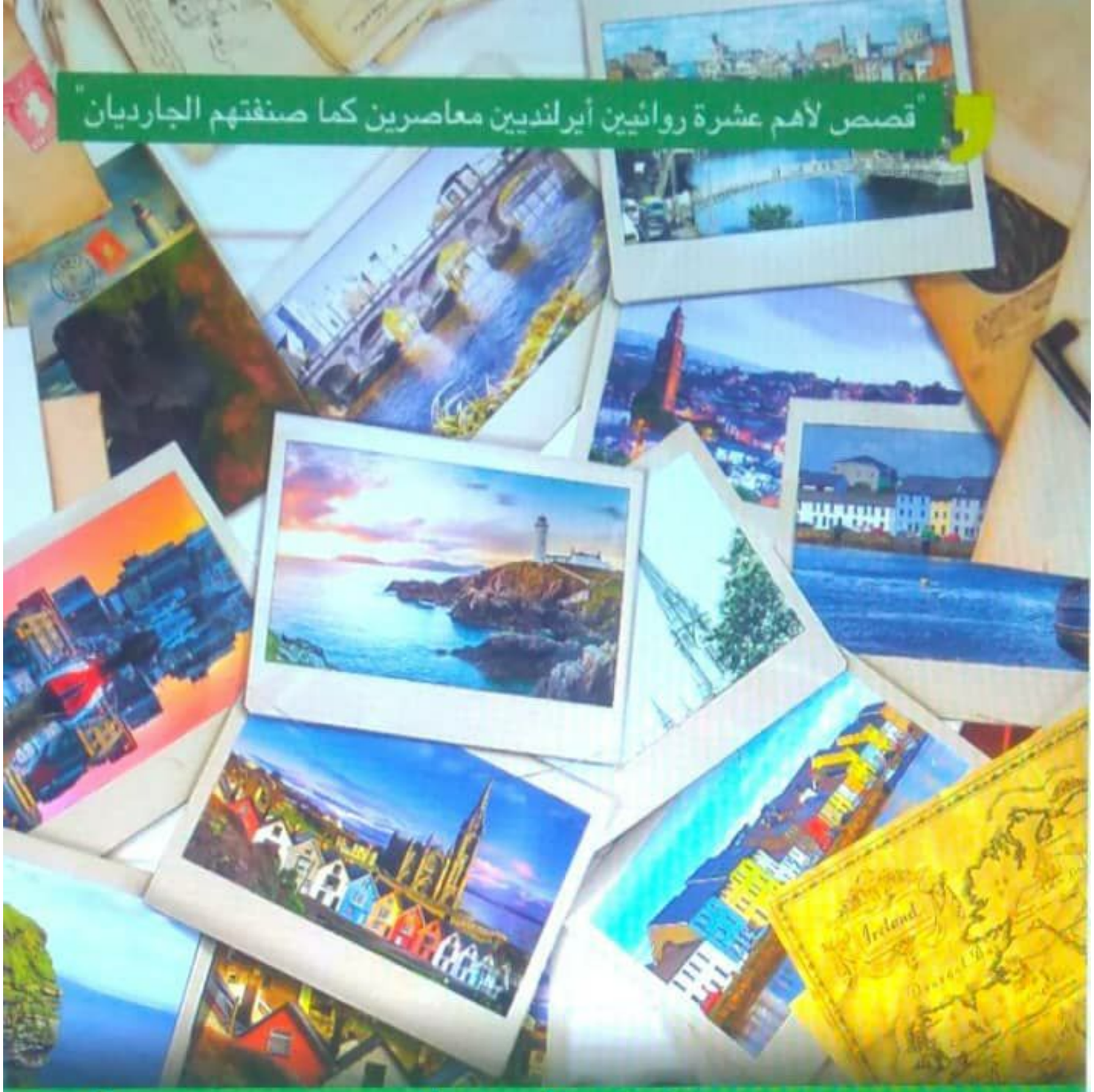

Telegram:@mbooks90

قصص من أيرلندا

مجموعة مؤلفين

ترجمة: مجموعة مترجمين

العربي للنشر والتوزيع

قصص قصيرة مترجمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقدمة

إن للأدب الأيرلندي المعاصر شهرة واحتفاء عالميين؛ فعلى الأقل، فاز أربعة كتّاب أيرلنديين بالنوبل في القرن الماضي، على الرغم من أنهم لم يفوزوا بها لأنهم من مؤلفين القصص القصيرة.. حتى الآن، كانت الدراما، والشعر هما أكثر ما استقطب الجوائز العالمية، ومع هذا، فإن القصة القصيرة هي دون شك، جزء أساسي من المشهد الأدبي الأيرلندي. خلال القرن الماضي، اهتم المؤلفون الأيرلنديون بهذا النوع الأدبي، وطوعوها لكي تقابل احتياجاتهم، فأصبحت عاملًا أساسيًا في التعبير الأدبي، لكن ليس لدينا سببًا واضحًا يفسِّر السبب في أنها قد أصبحت كذلك.

«الموتى» (١٩١٤) لجيمس جويس، هي واحدة من أشهر القصص القصيرة في عالم الأدب، وهي تُدرَّس تقريبًا لكل تلاميذ المدارس في أيرلندا، إضافة إلى أشهر مجموعاته القصصية «ناس من دبلن» (١٩١٤).. ولا بد أن لجويس تأثيرًا كبيرًا على كل الكُتَّاب الطموحين هنا. في الواقع، إن تأثير جيمس جويس طاغٍ لدرجة أن الكثير من الكُتَّاب يطمحون إلى الخروج من تحت مظلة تأثيره الكبيرة. على الرغم من ذلك، فإن معظم المؤلفين الشباب في أيرلندا يبدؤون بكتابة القصة القصيرة قبل - وهذا في معظم الحالات -

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشروع في كتابة الرواية.

إن احتمالية أن نجد مجموعة قصصية منشورة هي - كما أؤمن - حافز.. في أيرلندا، مجموعة من «المجلات الصغيرة» التي تتيح الفرصة لنشر القصص القصيرة.. وعلى الرغم من أنها لا تدفع الكثير لمؤلفيها، فإنها على الجانب الآخر تشجعهم، والأهم من ذلك، تقدمهم إلى جمهور سيتفاعل معهم. تلك العلاقة التي تنشأ بين الكاتب وقرائه في ذلك المجتمع الصغير تخلق بيئة يمكن للقصة القصيرة أن تزدهر فيه. من المجلات والمنشورات التي تتيح فرصًا رائعة لمؤلفي القصص القصيرة، «The Stinging Fly"، و"The Moss"، و"Banshee"، وجرنال اللغة الأيرلندية الجديد "Aneas".

كما ذكرت من قبل، وكما يحدث في أجزاء أخرى كثيرة من العالم، تُدرَّس القصة القصيرة في المدارس؛ القصص الشهيرة، وكذلك القصص التي يكتبها شباب المؤلفين. في أيرلندا، تُقرأ بعض تلك القصص أيضًا باللغة الأيرلندية، وخصوصًا قصص الكاتب الأيرلندي "باداريك أو كونايري" (1882 - 1928)، إضافة إلى قصص أخرى. ويُشجَّع طلبة المدارس على كتابة القصص أيضًا، لكي يبدعوا مع ذلك اللون الأدبي وألا يكتفوا بقراءته فقط. يساعد ذلك التمرين والتعرض الدائمين للقصة القصيرة على خلق بيئة يمكن للقصة القصير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تزدهر من خلالها في أيرلندا.

إذًا، لماذا لم تحصل القصص الأيرلندية القصيرة على فرصة النشر بتوسُّع في اللغة العربية؟ من الصعب أن نحدد السبب، لكن دون شك، للجغرافيا عامل في هذا، وكذلك اللغة والثقافة، وأيضًا الحجم؛ فأيرلندا دولة صغيرة للغاية على أقصى أطراف أوروبا.. في حين أن العالم العربي متنوع، ومختلف، وواسع، وبعيد للغاية عن أيرلندا.

إن القصص التي تحتوي عليها هذه المجموعة، مختلفة تمامًا عن بعضها، وتقدم للقارئ شخصيات تواجه مواقف صعبة ومحورية ستغير حياتهم.. لحظات ستتغير فيها طريقتهم في فهم العالم. تتنوع الأماكن التي تدور فيها أحداث القصص بين الريف، والمدن الصغيرة، والمناطق الحضرية. الأصوات كذلك مختلفة تمامًا؛ من مراهق، لشاب في مرحلة البلوغ، لأناسٍ أكبر سنًا، وشخصيات جعلتها الحياة وتجاربها وآلامها وخيبات الأمل صلبة. على الرغم من كل ذلك، هناك أيضًا الأمل، والسعادة.. غالبًا مع نهاية كل قصة عندما تصل الشخصيات إلى نوع من التصالح مع الذات أو تغيرٍ ما يحدث في حياة بطل القصة.

Telegram:@mbooks90

إنني ممتنة للمؤلفين، وناشريهم، والمسؤولين عن حقوق قصصهم الذين كانوا على استعداد دائم وتحمس للمشاركة بأعمالهم في هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجموعة. أشكر كذلك شريكنا في Literature Ireland – المؤسسة الأيرلندية للأدب – العربي للنشر والتوزيع، والذي ساعدت خبرته، وإصراره، وتفانيه، والتزامه على خروج هذه المجموعة إلى الضوء. كان الدعم المادي من وزارة الخارجية الأيرلندية كذلك ذا أهمية كبيرة لنا؛ سواء ماديًا أو معنويًا، وهو ما ساعدنا أكثر على إرساء علاقات أقوى مع العالم الأدبي العربي.

أتمنى أن تصبح هذه المجموعة القصصية هي فاتحة الحوار بين أيرلندا والعالم العربي، وأن تصبح أول كتاب في سلسلة من التبادلات الثقافية والأدبية.

"شينيد ماك آدوها"، المؤسسة الأيرلندية للأدب

Sinéad Mac Aodha, Editor

دبلن، مارس 2021

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غياب

ترجمة: يارا كمال

عن المؤلفة:

«كريستين دوير هيكي»

روائية وكاتبة قصة قصيرة. نشرت ثمانية روايات ومجموعة قصصية
Telegram:@mbooks90
ومسرحية من عدة فصول. فازت روايتها الأخيرة «الأرض الضيقة» بجائزة «والتر سكوت» لعام ٢٠٢٠ وهي أول من فازت بجائزة «دالكي» الأدبية في العام نفسه، وفازت روايتها «تاتي» في المهرجان الأدبي «دبلن: مدينة واحدة، كتاب واحد ٢٠٢٠» باعتبار دبلن مدينة اليونسكو الأدبية. كما أن «هيكي»عضوة في الأكاديمية الأيرلندية للكتّاب والفنانين (Aosdána).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نشرت لها العربي للنشر والتوزيع رواية «تاتي» عام ٢٠١٦ وترجمة هند عادل.

أوَّل شيء لاحظه هو الصمت. جلس على المقعد الخلفي في التاكسي، الذي ابتعد عن مطار «دبلن» واتخذ طريقًا سريعًا لا يتذكره. وعلى يمينه ويساره سيارات وسائقون جامدون مثل الدمى. فكَّر في طريق مومباي السريع؛ كل يوم، ينظر الناس من نوافذ السيارات ويشكون أو يتضرعون إلى السماء. ارتفعت أبواق السيارات الغاضبة، وبطريقةٍ ما، بدت كل تلك الضوضاء المتبرمة التي تكاد تفجر الرأس، كأنها احتفال بشيءٍ ما.

تعلَّم «فرانك» ألا يتوقع حال الطريق السريع في الهند، حيث يتكوَّم الشباب الصغار على الموتوسيكلات ويتعثر الرجال كبار السن ذوو الوجوه الصلبة في الأمتعة أعلى الباصات، ولكن ما لم يتوقعه هنا هو هذا الفراغ.

تملكه شعور بأنهم يسيرون في الطريق الخطأ، وعندما ظهرت لافتة تشير إلى «باليمون»، تساءل ما إذا كان السائق لم يسمعه جيدًا. فكر في أن يسأل السائق، ولكنه لم يرِد أن يبادر بإنهاء هذا الصمت. في المطار، في الوقت الذي كان يضع فيه أمتعته داخل التاكسي، كانت كلمة واحدة كافية لبدء محادثة، ولكنهما تبادلا نظرة في بضع ثوانٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معدودة، اتفقا خلالها أن يترك كل منهما الآخر وشأنه.

على أية حال، كان يتوقع النزول عبر قرية «درمكوندرا»، تخيل كل ما سيكون؛ الأشجار ترافقه على الجانبين، والظل يتسرب من بينها على الطريق. سيرى الجزء السفلي المضلع من كوبرى السكك الحديدية ثم مزيجًا من لافتات المحلات والحانات يظهر في شارع «دورسيت»، حيث تزداد حدة الضوء فجأة. كان يتطلع إلى حدٍ ما إلى أن يلعب مع نفسه لعبة «اكتشف التغييرات».

حينها، تذكر شيئًا حدث له في أثناء طفولته في الطابق العلوي من الباص مع والدته. كانوا في طريقهم إلى المطار، ليس من أجل السفر إلى مكان بالطبع، ولكنها إحدى النزهات التي كانت تبتكرها لترفه عنهم في العطلات المدرسية. قضوا اليوم هناك يتسكعون ويحدقون إلى مهبط الطائرات عن طريق نوافذ صالة المراقبة الكبيرة، أو يقرؤون لوحة وجهة الطائرات الكبيرة ويلتقطون أسماء الطائرات التي تذكرهم بعض الشيء بدروس الجغرافيا التي لا ينصتون إليها جيدًا. وأحيانًا، كانوا يقفون خارج الكافيتريا ولعابهم يسيل على قائمة الطعام، حيث سألت «سوزان» يومًا لماذا لا يستطيعون الدخول، فشرحت لها «ميريام» بحسم: «لأنها للأثرياء فقط».

أحبت «ميريام» الأثرياء - هؤلاء الركاب بتسريحات الشعر الأنيقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرتدون ملابس متناسقة. لم يكن لدى «جوني» وقت لهم. قال «جوني»:

- إنهم يحبون جذب الانتباه للغاية ويحركون تذاكرهم في الهواء في كل أنحاء المكان، كما لو كانوا يعتقدون أنهم يبلون كما هو المطلوب بالضبط.

ولأن «جوني» كان يشعر بذلك، كانت «سوزان» و»فرانك» يشعران مثله أيضًا. على أية حال، كانوا يفضلون مشاهدة الطيارين والمضيفات الذين كان مظهرهم كما هو مفترض به أن يكون. يروحون ويجيئون بالمطار، وحقائبهم الغامضة تتدلى من أكتافهم، ويبدو عليهم كما لو أنهم يفكرون في أمور شديدة الأهمية. كانوا يبدون مهندمين للغاية كما تقول أمه دائمًا.

Telegram:@mbooks90

في الطابق العلوي من الباص، كان الأطفال الثلاثة راكعين على ركبهم ينظرون من النافذة الخلفية الطويلة، وأمه تجلس على كرسي صغير في الخلف. بدا انعكاس رأسها في زجاج النافذة شفافًا كما لو كان شبحًا. كان يلتفت إلى الخلف ليتأكد من أنها ما زالت هناك برأس صلب وشعر بني حقيقي فوقه. كانت يداها في وضعهما المعتاد: يدها اليمنى للتدخين واليسرى لأطفالها، لتمنع أحدهم من الوقوع أو لتمسح أنف أحدهم أو تصفع أحدهم، تبعًا لما يحدث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في أثناء النزهة، حمل كيسين بلاستيكيين لافًا يديهما مرتين حول معصمه. كان حذرًا في الإمساك بهما ومهتمًا بذلك للغاية، لأن «سوزان» في المرة الأخيرة التي أمسكت فيها بالأكياس، نسيتها في موقف الباصات. النبض في رسغه كان منخفضًا وكانت يدا الكيسين ملفوفتين بشدة على معصمه، والرائحة السيئة لسندويتشات البيض مختلطة بأدخنة الباص جعلته يشعر بالتعب والجوع معًا.

في هذه الذكرى، لم يرَ «سوزان»، أخته الكبرى، مما أزعجه الآن كما أزعجه وقتها. كان هناك ارتياح لعدم وجودها معهم، فهي تثير أعصاب أمه وتعكر الجو العام باستمرارها في أفعالها المثيرة للغضب. لكنه ما زال يفتقدها. كانت تُعاقب على الأرجح، أو تترك عند إحدى الخالات الصارمات أو تُحتجز في غرفة المخزن طوال اليوم، أي تُعاقب بالإقصاء، لأن أمه كانت غالبًا تقول: «إن صفع «سوزان» مجرد مضيعة للوقت»، ولكن ذلك لم يوقفها عن أفعالها مطلقًا.

هكذا كانت الذكرى، بلا بداية وبلا نهاية، سواء كانت تعني القليل أو لا تعني شيئًا على الإطلاق، مع ذلك ما زالت تسيطر على مشاعره.

مال «فرانك» إلى الأمام وقال:

- في الحقيقة، كنت أريد الذهاب إلى «باليفرموت»، وليس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«باليمون".

تبرم سائق التاكسي وقال:

- نعم، أعلم.

هذه أول مرة يسمع شخصًا يتحدث بلهجة «دبلن»، وهي بعيدة عن لهجته، وهي كل ما اكتسبه منها، في قرابة عشرين عامًا.

منحته لافتة «باليفيرموت» بداية، كأن تجد اسم شخص عرفته يومًا ما في عناوين الجرائد. بعد دقائق معدودة، يمران عبر ضاحية «بالمرزتاون»، ويُصدم «فرانك» من اللون البيج المنتشر في كل شيء: المنازل والحوائط والناس ووجوههم.

عند مستشفى «تشيري أورتشارد»، كانت السيارات تكاد تزحف من الازدحام. المستشفى على اليمين جامد وكئيب كالمعتاد، لكنه مستمر في العمل بثبات. وكذلك مدخنة المغسلة التي كانت المشهد الذي يراه عادةً هو ورفيقه الدائم طيلة ثلاثة أشهر قضاها هناك وهو طفل. هو يشعر الآن بوالده، محاولًا الدخول إلى رأسه ومقاومة هذا الشعور ودفعه خارجًا.

سارا بموازاة بوابة المستشفى والحوائط التي تنقوس نحو المدخل. استرجع «فرانك» إحدى الذكريات: تمايل سيارة الإسعاف في تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الليلة وتلعثم وتوقف سرينتها من حين لآخر، كأنها نسيت كلمات أغنيتها. وهو يفيق من هذيانه لدرجة تجعله يلاحظ سقوط الثلج على الزجاج الأسود لنافذة سيارة الإسعاف، ويتساءل كيف يتصبب منه العرق بغزارة، في حين أن الجو في الخارج بارد لدرجة سقوط الثلج. سأل أين هم، وعندما أجابه رجل الإسعاف بأنهم في «تشيري أورتشارد»، فكر أنه أجمل اسم سمعه على الإطلاق.

استنكر سائق التاكسي حركة المرور، ثم شغَّل الراديو. صدر منه صوت يتحدث عن المال، وصوت آخر يبدو متوترًا أو غاضبًا على التليفون. مد سائق التاكسي يده وأغلق الراديو وأعاد تشغيل الصمت مرة أخرى.

تذكَّر «فرانك» الآن صوت أبواب سيارة الإسعاف وهي تصطدم بعنف وإحساس أنك تُرفع كأنك محمول بمغرفة في الظلام والهواء البارد، واعتقاده أن شجرة كرز مزهرة ستسقط فوقه، عندما نظر إلى أعلى في تشوش الرؤية الذي يسببه الثلج. بالتأكيد كان يخرِّف بشأن كل ذلك في أثناء مرضه على أية حال، لأنه بعد أن تحسنت حالته، أحضر له أبوه مسرحية لـ«تشيكوف». كان فتى صغيرًا في الرابعة عشرة من عمره يظن نفسه ذكيًّا مثقفًا، لأن ذلك بالأساس كان ما يخبره به الجميع دائمًا، لكنه لم يستطع قراءة ما بعد الصفحات القليلة الأولى، مما بدت له قصة قديمة مملة عن أشخاص حمقى شكائين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مزعجين وأسمائهم غريبة. ظل يسترجع إهداء والده دائمًا: «إلى فرانسيس، الذي يحمل اسمي نفسه، والذي، على عكس المؤلف، نجا بحياته. مع حبي، فرانك الكبير». ظل يحاول فهم ماذا كان يعني ذلك بحق الجحيم أو لماذا كان والده يكتب إليه بهذه الطريقة كما لو كان بالغًا أو كما لو كانا غريبين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تكون في مكان ما

ترجمة: يارا كمال

عن المؤلفة:

«سيوبهان مانيون»

وُلدت في أيرلندا وتربت في «كامبريدج» بإنجلترا. أسرتها من «كليفدين» بمقاطعة «جالواي». فازت بجوائز للكتابة الروائية القصيرة والدراما الإذاعية، وظهرت كتاباتها في منشورات أيرلندية وعالمية منها مجلة «ثمانية عشر جسرًا» (Eighteen Bridges)، ومجلة «منصة» (Stand)، ومجلة «الفراشة» (The Moth)، وكتاب «الكتابة الأيرلندية الحديثة» (New Irish Writing)، ومجموعة المختارات الأدبية «خيوط الأمل الفضية». (The Silver

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Threads of Hope) . كما حصلت على زمالة «ما كدويل كولوني» (MacDowell Colony)، وجائزة «هينيسي» (The Hennessey award). تعمل منتجةً إذاعيةً في راديو وتليفزيون أيرلندا (RTÉ) وتُكمل حاليًّا مجموعتها القصصية الأولى.

تنعطف بالسيارة المحمَّلة بالطعام والمشروبات إلى طريق العودة من المدينة من دون تفكير. تواجهها شمس ما بعد الظهيرة وهي تصعد الطريق الضيق على السرعة الثانية. إحدى قدميها ضاغطة بقوة على الـ«دبرياج»، بينما الأخرى تضغط برفق على الفرامل، فتنزل سيارتها الـ«فيستا» من فوق التل. إنها تعرف كيف توقفها عند زاوية ما بعيدًا عن الرياح الشديدة التي تعصف ١٢ شهرًا في السنة. لعل نور الشمس يسقط على كل شيء، مانحًا الرمال الصفراء الباهتة حياةً، وعلى الصخور الغامقة اللامعة في الطرف البعيد من الشاطئ، وعلى المياه التي تتحرك ببطء في الجزر المنخفض الذي جذب نظرها نحو البحر.

تميل السيارة قليلًا وسط الرياح. في الصباح الباكر، تأتي هنا لتمشي أو لتستنشق هواء البحر، وفي بعض الأحيان، لتسبح. مرت عشرة أيام طويلة منذ زيارتها الأخيرة إلى البحر. تفك حزام الأمان وهي تشعر به ينزلق للخلف حول نفسه وتعقد ذراعيها حول خصرها. وهي تنظر عبر الزجاج الأمامي، تستطيع أن تلتقط رائحتها هي على ملابسها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجلدها وجسمها، وتتعامل معها منفردة. تصنع الموجة القادمة رغوة عند الصخور العارية. إذا تركت نفسها، قد تنام. يحتاج الوصول إلى البحر مشيًا إلى أقل من دقيقة. تغوص قدمها في الرمال الأكثر انحدارًا، فتقع على ظهرها وتنزلق بعض الشيء إلى الأسفل.

لا أحد يراها، فقبل موسم الصيف ببضعة أسابيع، تظل تلك المسافة من الساحل غير مأهولة بالبشر تقريبًا فترة قصيرة أخرى. تنفض الرمل من على بنطالها الجينز وتضع مفاتيح السيارة في جيبها وتسير بثقة في مواجهة الرياح.

عند الشاطئ، يزحف الجزر إلى الداخل. تتحرك في خطوات صغيرة وتهدأ مع اندفاع المياه، تاركةً الوقت يمضي. قريبًا، سيتساءل زوجها عنها وعن الإمدادات التي أحضرتها من المدينة: الأجبان الطرية التي وضعتها في الكنبة الخلفية، وزجاجات ضخمة من المياه الفوارة وعصير الليمون، وصندوق من زجاجات الخمر، وست علب من البيرة وضعتها في حقيبة السيارة وثلاث علب بلالين أخذتها من دون تفكير.

تخلع حذاءها وجواربها وتمسك بها في يد واحدة، وتمشي ورأسها إلى الوراء ناظرةً نحو السماء.. إنها زرقاء اليوم ولا يعكر صفوها شيء سوى بضعة سحب ضالة. كلما توقفت الرياح، تقترب الحرارة المختبئة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في النهار من الأرض. تقف حافية القدمين عند بداية المحيط والرمل ينكشف من تحتها قليلًا مع كل انسحاب للجزر. يأتيها من ناحية الماء صوت أزيز محرك واحدة من مزلجتين مائيتين من المدينة، تدور حول شبه الجزيرة.

يتأرجح دلو صغير للأطفال فوق رف صخري رمادي عند نهاية الساحل، ويتألق شكل المحار عليه في ضوء الشمس. تتخذ طريقها إليه وتحدق إليه. يمتلئ تقريبًا حتى حافته بالصدف الملون والحصى الناعم، ولكنه ينزلق منها عندما تصل إليه. تسقط محتوياته أسفل جانب الصخرة، فتصير ركامًا مفاجئًا على الرمل المبلل. تستقر صدفة سرطان بالغة الصغر فوق الكومة، وسطحها السفلي مفتوح متصدع، خالٍ من الحياة. تلتقطها بإصبعيها وتفحصها قبل أن ترميها في المحيط الأطلنطي. للحظة وجيزة، ترقص على السطح قبل أن تختفي عن النظر.

تخبرها نظرة خاطفة نحو ساعتها بأن أمامها نحو ٤ ساعات قبل أن يأتي أول ضيوفها، ما يعني أن لديها بعض الوقت. تخلع سترتها الصوفية وتطويها وتتركها حيث الرمل جاف، وتبرِّد نسمة منعشة ذراعيها.

تضع ساعتها، كالعادة، في فردة حذائها اليسرى، وتدفع جوربها إلى داخل الحذاء وراءها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون النظر حولها، تُنزل بنطالها الجينز. تتدحرج الموجات الصغيرة ذات الرغوة حول نفسها داخل الموجات البعيدة ويتلألأ البحر في إشراق النهار الكاذب. تركض في خفة حتى تصل إلى الشاطئ.

تنزل البحر وتعد نفسها للبرد المألوف الذي سيعانقها. بسرعة، يصل الماء إلى كتفها، ثم ترفع جسمها كله. يثقُل قميصها، ولكنه ليس ثقيلًا للدرجة التي تُحدث أمرًا. تتجه نحو الأفق ببضع ضربات من السباحة الحرة، وتنقلب على ظهرها عندما تحتاج إلى التقاط أنفاسها. يتأقلم جسدها على درجة حرارة المياه.

إنه شعور جيد أن تكون في المحيط، وأن تطفو دون مجهود لحظةً تلو الأخرى. لا أحد هنا غيرها. لا بدَّ أن مدرسة ركوب الخيل كانت تشق طريقها ببطء في وقتٍ مضى من هذا النهار، ولعلها تتجنب المعتادين ممن يتنزهون مع الكلاب. تمتد على ظهرها ورجلاها مضمومتان وذراعاها ممدودتان بجانبها، وجسدها يتمايل وعقلها يتأمل المساء القادم. قد تجد قطعة من الخشب طافيةً على حافة الماء وتعود إلى البيت بها وتربطها بأضواء جميلة وتعلقها في الرواق.

الدقائق تمر، وهي تتمايل وركبتاها تصطدمان بصدرها ويداها تغرفان المياه أسفل السطح وجذعها يبرد مجددًا كلما استرخت. وأصابع قدميها في الهواء، تثني قدميها وتبعد أصابع قدميها الطويلة النحيفة عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعضها. تنسكب موجة مفاجئة فوقها. تبصق وتتشقلب إلى الأمام، ثم تسبح على جنبها ببطء على طول الشاطئ مواجهةً البر. عندما تنحرف إلى ما وراء أبعد جزء من الصخر، تضبط مسارها نحو الداخل مرة أخرى.

لبعض الوقت، تمشي في الماء وتركله بقوة وتحاول أن تبقى دافئة. يعميها ضوء الشمس مؤقتًا. ينتفخ قميصها ويفرغ مرة أخرى وهي تنسل في سباحة صدر واهنة، ورأسها فوق صفحة الماء طوال الوقت.

لكن جسدها يشعر بالتعب، والشاطئ يبدأ في الابتعاد. وبالفعل كانت قد أخذت كفايتها. يظهر جارها «هاري» على الشاطئ، متحركًا قرب الرمل المتلألئ بمشيته العرجاء، وكلبه «التريير» منطلقًا أمامه. تتوانى، منتظرةً إياهما أن يتسلقا الصخور المنخفضة حتى يصلا إلى الحقول. تضربها الموجة القادمة على مؤخرة رأسها، لترسلها إلى أسفل. تعود إلى السطح مجددًا وتتنفس جرع ضئيلة من الهواء وتشعر أن قلبها يدق بقوة في صدرها. يسحبها البحر للوراء ويدفعها إلى الأمام بقوة متجددة، وكل جزء فيها يتشنج ويدور في دوامة.

تعلم أنها يجب أن تُهدئ نفسها وتنتظر وتفترض أن الأسوأ حدث بالفعل. فكرت: «اطفي» تاركةً أطرافها تسترخي، مدفوعةً إلى ذلك.

ثم انتهى الأمر. تدفع نفسها نحو الشاطئ خائرة القوى حتى تصطدم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ركبتاها بالحجارة. يقاوم جسدها ليتحرك إلى الأمام وهي تدفع نفسها للوقوف ويلتف طُحلُب البحر حول كاحلها. تقع على ركبتيها وتنغرز أصابعها في الرمال. تسمع نعيق نورس قريب. تشاهد هذا الكائن وهو ينقض، في قوسٍ واسع، على شيءٍ ما في الحشائش الصفراء الشائكة خلف الكثبان. يجذب تيار الماء الأرض من تحتها، وببعض الجهد، تتقدم ببطء بعيدًا عنه حتى تصل إلى جزء جاف من الشاطئ.

تعوقها ملابسها المبتلة وهي تتحرك في مأوى من الصخور، بعيدًا عن وخز الرياح. تميل إلى الأمام تاركةً ذراعيها تسترخيان وشعرها يتدلى إلى الأمام.

ينساب الماء بسرعة على الرمل. ترتعش ساقاها. تأخذ نفسًا طويلًا عميقًا وتحبسه بقدر إمكانها، قبل أن تطلقه بحذر.

- أهلًا، «جريس».

- "هاري». لم أرك.

تلقي رجفاتها الرعشة في صوتها. تلتقط بنطالها الجينز وتمسك به أمامها. يبدو أنه لم يلحظ أي شيء غريب، فهي لا ترتدي بدلة سباحة، بل ثيابًا داخلية وقميصًا مبتلًّا تمامًا.

- ذلك جيد لك. ها نحن في يوم الجمعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا ترد عليه. تمرر يدها عبر شعرها لتبعده عن وجهها. يستمر قائلًا:

- لم نركِ منذ فترة.

- لا.

- هل كنتِ في مكانٍ ما؟

- لا. لا. كنت مشغولة ببعض الأمور ليس إلا.

أومأ «هاري» متفهمًا.

- سمعت عن حفلة كبيرة الليلة من أجله.

- هذا صحيح.

ينبح الكلب على الجياد القادمة من فوق التل. جلس الركاب على سروجهم. حدقت إليهم سعيدةً، لأنها وجدت سببًا للنظر بعيدًا. بمجرد نزوله إلى الرمال المستوية، ينطلق كل جواد في هرولة، وسرعان ما يستعيد الركاب اتزانهم، ويعتدلون بسهولة في جلساتهم.

يقول»هاري»:

- أنتِ تنزفين.

- ماذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يشير إلى الأرض. يتدفق الدم من جرح بطول الجزء العلوي من قدمها: الأحمر القاني مقابل جلدها الشاحب، ذائبًا في جداول وردية صغيرة عندما تلتقي معه قطرات الماء. يشاهدان معًا انسياب الدم، وتنتظر الألم.

يقول، مستخدمًا قدمه ليبعد الكلب الشقي عنها:

- ربما ليس سيئًا كما يبدو.

تقول محتضنةً نفسها وأسنانها تصطك.

- صحيح.

- حسنًا، سنذهب الآن. أراكِ لاحقًا.

- إلى اللقاء يا «هاري».

من عادتها أن تبتسم، ولكن ذلك لا يحدث اليوم. يمشي بتثاقل. تنادي قائلةً:

- مر علينا لاحقًا إذا أحببت. سنرحب بوجودك كثيرًا.

يلوّح بيد واحدة عاليًا في الهواء دون أن يستدير، وتفهم هي أن المرة المقبلة التي ستراه فيها ستكون هنا حيث يقفان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتسلق آخر جياد القافلة المرتفع مجددًا ويهز راكبه الشاب، وهو يحاول أن يضع قدمه على الكثيب البارز. تسحب قميصها المبلل من فوق رأسها، لتسمح للهواء بالمرور على جلدها المبلل وملابسها الداخلية. تغالبها أزرار سترتها الصوفية للحظات. تفك حمالة صدرها وتسحبها من كم واحد، فيثقل ثدياها. لا شيء يدعمهما. وقتها فقط تلاحظ أن إحدى فردتي حذائها، التي وضعت الساعة بداخلها، مفقودة. ترقد الفردة الأخرى في سكون حيث تركتها، وآثار قدم الكلب الواشية تسير عبر الرمل.

تهتف:

- "هاري"».

وهي تسحب بنطالها الجينز وتجري على أصابع قدميها على الحشائش الحادة، متفادية جحور الأرانب وروثها. ولكنهم أصبحوا بالفعل بعيدين عن مرمى السمع، والرياح تبتلع صوتها. تلعن بصوت عالٍ وتنظر إلى السماء. تعرف أنها لا يمكنها أن تتأخر، فظلها أصبح طويلًا بجانبها. تعود إلى الشاطئ وتضع قدمها المجروحة داخل فردة حذائها الموجودة تاركةً رباطها مفكوكًا بعض الشيء. يغطي الجورب الوحيد قدمها اليسرى، وبخطوات غير منتظمة، تعود من حيث أتت إلى السيارة، وهي تعصر أشياءها المبتلة وتمشي، تاركةً أثرًا داكنًا في الرمل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتوقف الوقت ساكنًا في لحظة عندما تجذب باب السيارة بعنف لتغلقه. تغطي ساقيها بسترتها، فتجد فيها الراحة والحرارة والسرور. يوجد صندوق من المقرمشات في متناول يدها في حقيبة خلف مقعد الراكب. تمزق الورق المقوَّى والغلاف البلاستيكي لتفتحه، وتأكل قطعتين دفعةً واحدة ثم أخريين. وهي تدير السيارة، يهب الهواء من المدفأة، وبالتدريج يصبح دافئًا. يحرقها جلدها المجروح في حذائها المفتوح. يومض تليفونها المحمول لوجود ثلاث مكالمات فائتة. نقرت ردًّا عليها: «سأعود قريبًا يا حبيبي (قبلة)». يحاول الاتصال بها فورًا. تجفل وتتأمل نفسها في المرآة التي توجد في حاجب الشمس: الظلال الغائرة أسفل عينيها، خداها الباردان المحمران، أطراف شعرها المجعدة المتيبسة من ماء البحر. بعد رنة الرسالة، يعود الهدوء مجددًا.

يدفع الدبرياج (القابض) مشط قدمها المغطاة بالجورب، وتبدو السيارة قريبة للغاية من الأرض وأن ماكينتها ثقيلة حولها. تقبض على المقوَد بكلتا يديها شاعرةً بعدم التوازن. عند نتوء في الطريق، ترتد الحمولة في حقيبة السيارة. يتمشى خروف عبر الطريق ويرش خطًّا برتقاليًّا منيرًا على جانبه. تضغط على الفرامل وتمسك تليفونها المحمول مجددًا. تقول وصوت تنفسها يصاحب صوتها:

- آلو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترد طفلة.

- آلو.

- أهلًا يا عزيزتي. أنا «جريس».

تطلب من الطفلة أن تتحدث إلى أمها، وتسمع صوت السماعة والطفلة تتركها وهمهمات الأسرة والتليفزيون غير المترابطة في الخلفية.

- أهلًا «جريس».

- أهلًا. أحد خرفانك على الطريق.

- مرة أخرى! سأرى هذه الموضوع الآن. ما أخبار صاحب عيد الميلاد؟

- إنه في أحسن حال. أنا في طريقي إلى البيت.

- حسنًا. نادينا إذا احتجت إلى أي شيء. نحن بالجوار.

- شكرًا. أراك لاحقًا. أتطلع إلى رؤيتك.

تنهي المكالمة وتنهد وترى الوقت وتغلق عينيها لتسكّن ذعرًا بسيطًا. عندما تفتحهما، كان الخروف يضغط نفسه في جانب السيارة من جهة السائق. من هنا، أمكنها أن تمد يدها وتضعها على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صوفه المتشابك وتشعر بنَفَسه على كفها. يجذب تركيزها إلى عينيه المتلألئتين، مميلًا رأسه بطريقة تثير أعصابها. تزيد سرعة المحرك، حتى تتقدم السيارة، وقلبها يقفز بداخلها.

تطلَّب الأمر من جسدها أكثر من أسبوع حتى يجرد نفسه من كل آثار الحياة الجديدة لتنزاح عنه. هي تعلم أنها أخافته بصمتها الطويل. شهوتها تصرخ. الآن أيامهما أهدأ مما كانت عليه منذ فترة. يستلقي الاثنان على الكنبة وأجزاؤه تنحسر في جزر بطيء بين رجليها. نقص الوقت مجددًا، إلى هذا اليوم فقط، تلك الليلة فقط.

على الطريق الرئيس، يتحرك جسمها خلف المقود، فتستعيد موضعه في المركز. يبتل مقعد السيارة أسفلها. تنسل أشعة الشمس على الطريق أمامها، وينعكس وهجها على نوافذ مجموعة من بيوت العطلة. تزيد السرعة بقدمها المتألمة، تاركةً رأسها يميل إلى الوراء على المسند، ضاغطةً على الدواسة بضغطات قليلة. تقترب من المنزل دون أن يعترضها شيء.

تنتقل عبر الأرض الجامدة، حيث ينمو القليل دون أن يهزمه الرياح وحيث تزدهر أشجار «الجولق» و»الفوشيه» التي تتغذى على الأمطار. هي الآن في البيت تقريبًا، بعد ساعة مما كانت تتوقع. تتذكر الأخشاب الطافية وتتساءل إذا كان أيًّا منها هناك وإذا كانت بحثت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عنها أم لا. هذه الليلة، سوف يشربون ويتحدثون ويضحكون ويغنون. لاحقًا، سيرقص آخر من تبقى منهم وهم يدورون حول أنفسهم ويشدون بعضهم بعضًا ويقعون ثانيةً، إلى أن يتوهج طرفا سيجارتين في مقابل السماء السوداء بلمسة زرقاء. يهدِّئ هواء الليل قدمها المجروحة بين حزام صندلها ذي الكعب العالي وطلاء أظافرها الفضي. يطلب جلد كلٍ منهما الآخر لا لشيء سوى المأوى، مجتمعين فوق الحشائش الباردة تحت النجوم الثابتة. قبَّلها قبلة بطيئة على كتفها. يحاول بالون طائش أن يفر. وفوقهما، يشق الفجر طريقه ورديًّا وممزقًا وجديدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خمسون عامًا من الشتاء

ترجمة: نيرة إبراهيم

عن المؤلفة:

«سارا بوم»

فنانة وكاتبة تعيش في الجانب الغربي من مدينة "كورك" الأيرلندية. رُشحت روايتها الأولى "سكب، غليان، تداعي، ذبول" لجائزة "كوستا فيرست نوفيل"، وفازت بجائزة "جيفري فيبر" التذكارية، وتُرجمت على نطاق واسع. في عام 2017، رُشحت روايتها الثانية "خط السير" لجائزة "جولدسميث". حصلت الكاتبة أيضًا على جائزة "رووني" وعلى زمالة "لانان" الأدبية. نُشر أوَّل كتاب غير روائي لها، "العمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليدوي"، في ربيع 2020.

مات كلب أبي وماتت أمي، والفرق بينهما ثلاثة أسابيع.

«إنه أسوأ شتاء نشهده منذ خمسين عامًا»؛ هذا ما قاله علماء الأرصاد الجوية، بمقاييسهم ورسومهم البيانية وبهجتهم المصطنعة.

في شقتي بالدور الخامس في الحي المالي بلندن، يوجد في البلكونة الضيقة حوض عصافير من الجرانيت، تلتصق بحافته ثلاثة عصافير جرانيت. كل صباح أنحت حول محيط الحوض، وأقتلع قرص جليد لأتركه على الأرض. ترتفع أقراص الجليد هذه درجات عدة ولا تسيح؛ وكأنها لعبة على شكل مدينة أبراجها متلألئة. دون حاجة إلى مقاييس أو رسوم بيانية أو بهجة مصطنعة، أقيس الشتاء بأحواض عصافير متجمدة.

ماتت أمي أولًا، في ثاني أحد بعد عيد الميلاد. بدأت رحلة موتها قبل هذا بفترة، في الصيف، عندما شعرت بألم غريب فوق الترقوة اليسرى، ك«وخزة المزمار الأيرلندي». هكذا وصفت الألم لطبيب الأورام، بكل تلقائية، كما لو كانوا اخترعوا المزمار الأيرلندي لوخز البشر. وخزها الألم أول مرة تحت الشجيرة الأرجوانية /الوردية ذات عصرية حارقة في عصر يوم حار في يوليو. ولم ينتهِ من وخزته واستمر حتى منتصف شتاءٍ برودته شديدة لدرجة أن الأوراق الأرجوانية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصبحت مسحوقًا ومهشمة. أتلف الصقيع الشجيرة إلى الأبد.

كان آخر نفس تنفسته أمي قصيرًا وحادًّا. أصدرت صوتًا حادًّا يشبه صريرًا مخنوقًا لمزمار القصدير.. وكأنها لطالما عرفت أن آخر نفس لها سيكون كذلك. دائمًا ما كانت تعلم أنه سيكون هكذا.

وقفت على بلاط المدفن الأسمنتي المتشقق، بين الجرانيت المصقول والصلبان «السلتية»، وباقات الزهور البلاستيكية والحصى الزجاجي الأخضر. هنا، أدركت أنني سأكون وحدي مع أبي هذا الكريسماس، والكلب معنا بالتأكيد، فلم يكن قد مات بعد.

طوال حياتي عاش والديَّ في قرية تقع على الساحل الجنوبي اسمها «بالي كوتون». خلال الصيف يسد السائحون هناك الطريق الرئيس الضيق ويقفون في طابور على المرفأ. ولكن في الشتاء، تسترد «بالي كوتون» سكانها المحليين. يوقف بائع الآيس كريم أغنيته، ويمتلئ عتبات نوافذ فندق «بيي فيو» بذبابات زرقاء ميتة، ويمتلئ طريق المنحدر بشجيرات التوت الأسود الشوكية.

يمتلئ البيت الذي نشأت فيه برفوف الكتب؛ أثاث تمكن منه الدود. الدفايات صدئة، وورق الحائط مشوه بالعفن، وتنبعث من الكنب سحب من التراب كلما جلست عليها، وتتفكك الكتب من روابطها المدعمة بالشرائط اللاصقة كلما أمسكت بأحدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبي رجل طويل ذو ملامح خشنة، ولديه عشق للأشياء التالفة بالتحديد. يفضل أن تكون ممتلكاته مستعملة ولها ماضٍ خاص بها؛ وكلما كان مأسويًّا كان أفضل. تقع معظم الأشياء الخاصة به في حديقة المنزل: ساعات شمسية، وأواني زهور على شكل بجع، وأحواض عصافير بكل شكل وخامة. في الفناء الأمامي المواجه للبحر، يوجد مقعد تذكاري يحمل اسم رجل لم يعرفه أبي في حياته.

كلب أبي - الذي تبناه من جمعية رعاية حيوان ما - قصير، ثمين، وثقيل الفرو. وعلى الرغم من أنني أجده لطيف المعشر، فإن شيئًا ما به يزعجني؛ شيئًا يشبه البشر على نحو مريب. دائمًا ما يرفع نفسه ويريح كفيه الأماميتين على الكراسي، وعلى ركب الناس، وعلى الدواليب ويستقر على ساقيه الخلفيتين. وأحيانًا حين يتثاءب، يصدر صوتًا وكأنه يقول «أنا..». كأنه يبدأ جملة لا ينهيها أبدًا. اسمه «فيلو» fellow، ودائمًا ما أنسى أن أسأل أبي ما إذا كان سماه بهذا الاسم لأنه لاحظ هو الآخر سماته البشرية المربكة.

Telegram:@mbooks90

كان أسوأ شتاء منذ خمسين عامًا؛ شديد البرودة لدرجة أن الطريق الخلفي المؤدي إلى «بالي كوتون» تحول بين ليلة وضحاها إلى قناة من الثلج الأسود؛ وتجمدت الحفر لتصبح حلبات تزلج صلبة كالحجر. عندما ماتت أمي، كان الأسفلت قد تجمد وساح مرات عدة لدرجة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن مساحات كبيرة من الطريق تفتتت إلى حطام وتساقطت في قنوات الصرف. في صباح جنازتها، سار الجيران في الطريق المتكسر ليحضروا مراسم الجنازة. كانوا يقفون عند فناء الكنيسة ويسندون أنفسهم إلى الأسوار لينظفوا قفازاتهم من رقاقات الثلج، وينتشلوا الجوارب وسلاسل العجلات العالقة حول أحذية «البووت» الخاصة بهم.

قال القس:

- كانت امرأة طيبة.

لم يرها القس في حياته سوى ليلة جنازتها، بعدما أنهى الحانوتي تزيين وجهها بالطلاءات والبلاسم والمساحيق. هذا الوجه الذي رأيته بداخل التابوت لا يشبه أمي على أية حال.

حبس أبي «فيلو» في الصوبة في أثناء استقبال الناس في المنزل. ترك معه دمية، مع العلم أنه لن يلعب بها. لا يهز «فيلو» ذيله ولا يلعب على الإطلاق. ينتفض خوفًا من أبسط الأصوات المفاجئة، وينكمش كلما رأى شخصًا جديدًا، مدققًا النظر إليه، وكأن الشخص على وشك أن يصفعه دون سبب.

في الليلة نفسها، قدت عائدة إلى «دبلن» في رحلة مدتها ثلاث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساعات، متجهة إلى السمكة الذهبية وسلتي التي أضع بها كل ما يمكن إعادة تدويره، والممتلئة بتذاكر ترام قديمة. نمت على كنبتي الجلدية ونظرت حولي إلى كل الأشياء ذات اللون «البيج» التي تشكل حياة البالغين التي بنيتها لنفسي. سألت سمكتي الذهبية:

- كيف تمكن حافرو القبور من حفر ستة أقدام في التربة المتجمدة؟

ولكنها لم تجب.

لم أذهب إلى العمل في الصباح التالي، ولا أي صباح آخر، على الرغم من علمي بأن المطعم يصبح مزدحمًا في هذا الوقت من العام؛ فهذه هي فترة الذروة في المطعم. وفي غياب أي شيء ذي معنى لأفعله، نظفت الأوساخ السوداء بين بلاط الدش، وتخلصت من النباتات الميتة في البلكونة، وجمعت كل جواربي ولففت كل زوج في كرة.

كنت أتصل بأبي كل يوم لأتفقد أحواله وأضع معه خططًا تفتقر إلى الحماسة بشأن الخامس والعشرين من ديسمبر. حاولت بكل جهدي أن أجعل صوتي أفضل مما أشعر.

قلت له:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كيف حالك؟

ولكنه لم يجب عن هذا السؤال قطُّ. قال عوضًا عن الإجابة :

- "فيلو» يفتقدها. ينتظر خارج الحمام ولا يفهم لماذا لا تخرج منه.

في آخر يوم يصل فيه البريد قبل الكريسماس، وجدت P45 في صندوق البريد بالأسفل. حملته معي إلى الأعلى وتركته فوق سلة إعادة التدوير. لاحقًا، أضفته إلى تذاكر الترام القديمة.

إنه الشتاء الأكثر برودة منذ خمسين عامًا، برودته شديدة لدرجة أن رجال الثلج يعيشون لمدة تفوق عمرهم الافتراضي بكثير؛ يقفون راسخين أمام كل خريف جديد. أذرعتهم المصنوعة من الأغصان متدلية بعض الشيء، وأعينهم المصنوعة من الفحم غائصة بعض الشيء.

لا حاجة إلى الرسوم البيانية أو البهجة المصطنعة، أقيس درجة برودة الشتاء برجال الثلج.

في عشية الكريسماس، جهزت السيارة وقدت خلال الطريق المليء بالثلج والملح والحصى وخرجت من «دبلن». اتجهت إلى الجنوب خلال منطقة الأراضي الوسطىThe Midlands Region . حاولت أن أصبر نفسي خلال الرحلة عن طريق عد الأشجار المزينة بفروع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النور التي تقع خلف الشبابيك الأمامية للمنازل؛ كنت ألعب هذه اللعبة في طفولتي. لكن عندما خرجت إلى الطريق السريع، أصبحت البيوت بعيدة وأصبح من الصعب أن أرى الزينة المعلقة داخلها. عندما وصلت إلى الطريق الخلفي لـ»بالي كوتون»، وجدته متسخًا ومظلمًا، ووجدت أنه بدأ في التجمد مرة أخرى. كنت أقود ببطء غير مبرر في الأميال الأخيرة. شيئًا فشيئًا، تحولت المناطق الريفية الظاهرة لي خارج الزجاج الأمامي للسيارة إلى ظلال تتحرك أسفل سماء مليئة ببقع بيضاء، واكتشفت أنه على الرغم من برودة هذا الشتاء الشديدة، فإن الثلج لم يتساقط منذ بضعة أسابيع؛ منذ آخر مرة جئت إلى البيت.. منذ ليلة جنازة أمي. فكرت كم هو أمر مبتذل أن يتساقط الثلج الآن، في عشية عيد الميلاد. كم هو أمر متوقع.

جلست أنا وأبي إلى جانبي المائدة وتناولنا العشاء معًا. لم ألحظ اختفاء «فيلو» إلا حين مسحت طبقي مما تبقى من الصلصة؛ حينها شعرت باهتزازات ساق أبي المرتعشة على البلاط غير المتزن. تكلمنا عن المطر، والطرق السريعة، وأشجار الكريسماس. أحيانًا كان يتوقف عن الكلام في منتصف الجملة؛ لا كشخص نسي ما أراد أن يقول، بل كشخص يحاول جاهدًا أن ينصت إلى شيء صامت، ولكنه لا يريد أن يبدي ذلك. قال لي (متحدثًا عن «فيلو»):

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أصبح وضعه سيئًا مؤخرًا. نظر إليَّ بعد ظهر اليوم لأدعه يخرج، فسمحت له. لم يعد من وقتها. هو في العادة يطرق على الباب.. يطرق عندما يريد أن يخرج، ثم يطرق مرة أخرى حين يرجع ويريد الدخول.

نظرت إلى أسفل الباب ورأيت كيف قُشر الدهان نتاج طرق «فيلو» عليه بحوافره الثلمة.

في الحادية عشرة مساءً، نهض أبي من مجلسه وملأ قدرًا من اللبن، ثم وضع بودرة الكاكاو في فنجانين. كان هذا إعلانه الصامت بموعد الخلود إلى النوم. في حين تحول سطح اللبن تدريجيًّا إلى طبقة سميكة، نظرت حولي إلى تشكيلة كتب الطبخ ومغناطيسات الثلاجة التذكارية الخاصة بأمي. نظرت إلى فنجانها الذي ما زال مصبوغًا بالشاي، معلقًا على فرعه في شجرة الفناجين، وإلى خط يدها المدون بعجلة على صفحة «ديسمبر» في النتيجة المعلقة في المطبخ. ثم نظرت إلى طبق «فيلو» الملطخ الذي يقع بجانب سلة المهملات. هناك سلة أخرى تقع أسفل السلم نلقي بها الأغصان التي يقضمها.

استند أبي إلى طاولة المطبخ وتأملنا المكان حولنا معًا...

تقع غرفة طفولتي، والتي أصبحت الآن مخزن خردة، في الطابق الأعلى. بها أكوام مرتبة من الصناديق محكمة الإغلاق، وأكوام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى عشوائية وغير مرتبة تنتظر يوم تعبئتها في صناديق. وجدت أشياء غير مألوفة مختلطة بقطع الخردة المكسورة والملصقات الملفوفة الخاصة بي. كان أبي يكدس تلك الأشياء هنا خلال فترة تقرب عقدًا من العمر منذ أن انتقلت من المنزل: شيء ما مصنوع من الماهوجني، و»ميترونوم» معطل، وتشكيلة كاملة من تماثيل الأقزام غير الملونة.

استلقيت على مرتبة سريري القديمة المحشوة بال»فايبر»، مغطاة بلحاف ذي صور باهتة لأقواس قزح ودباديب. سهرت طول الليل أتأمل المنظر خارج الشباك، تمامًا كما اعتدت أن أفعل في طفولتي كل عشية كريسماس. أحيانًا، في ذلك الوقت، كنت أرى طائرة في السماء وأصدق أن أضواءها الصغيرة تنتمي إلى زلاجة قادمة نحونا. لكن في تلك الليلة كانت السماء فارغة تمامًا. نظرت فحسب إلى المنظر الخاطف للخليج الذي لا ينضب، ممتدًا من سطح منزلنا إلى المرفأ وسفن الصيد الراسية التي تطفو في الفراغ الأسود، واصلًا إلى المنارة والبحر الواسع.

كان أسوأ شتاء منذ خمسين عامًا، شديد البرودة لدرجة أن السمك مات في البحيرات، واستلقت الأغنام مندمجةً مع الحقول، وتأرجحت رقاقات ثلج تشبه الرواسب الكريستالية، متدلية من الأشجار، مصطدمةً ببعضها بعضًا في الهواء بضجة غير متناغمة. هكذا أقيس برودة الشتاء، بسمك الشبوط الميت و...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان هذا الكريسماس الذي رن فيه التليفون في الصباح الباكر، فتتبعت أبي إلى الصالة لأجيبه. رد أبي:

- نعم؟ نعم..

ثم وقف بجانب حامل المعاطف وأومأ برأسه فحسب. أومأ دون أن يتفوه بكلمة، وكأن المتكلم من الجانب الآخر يستطيع رؤية يرى صالتنا خلال الأسلاك، وأنه يعرف بطريقة ما أن أبي يومئ برأسه.

وقف بجانب جاكيتَ أمي الصوف الذي ما زال معلقًا حيث تركته على شماعتها. كان الجاكيت يحمل شالها البني الصوف مدسوسًا داخل الياقة، وكأن ملابس أمي التي تركتها ورحلت تحاول خلسة أن تعيد تشكيل نفسها على هيئة أمي؛ عسى أن ترجعها إلى الحياة. قال أبي بعد بضع دقائق:

- شكرًا لإعلامك لي بالأمر.

ثم أنهى المكالمة.

مر بي في طريقه إلى المطبخ، ظهره منحنٍ بعض الشيء، وكأنه يحمل جذع شجرة على كتفيه، جذعًا كبيرًا يضغط عليه ويقربه شيئًا فشيئًا إلى الأرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال لي:

- كان هذا «مالكولم هارتي».. جارنا. وجدوا «فيلو». إنه مستلقٍ على الصخور أسفل الجُرف، أسفل مكان شديد الارتفاع بلا سور. رآه «مالكولم». كان يجري في خط مستقيم تجاه الحافة، ثم انطلق عبر الحافة بسرعة، وكأنه كان يعرف جيدًا إلى أين هو ذاهب.

نهضت وأرحت كفي على كُم أبي. هناك على بلاط المطبخ، وبواطن أقدامنا تقف على تصدعات وشقوق وعلامات شُكلت طوال حياتي من قبيل طفلة ورجل وامرأة وحيوان؛ هناك بين مغناطيسات الثلاجة التذكارية، ونباتات «التامبلوييد»، أدركت أنني لم أتعمد لمس أبي منذ كنت طفلة. فجأة، شعرت أن هذه البادرة مصطنعة وغريبة. لهذا سحبت يدي منه.

دونًا عن لمسه نظرت فحسب إليه وهو يرتدي حذاء «الويلينجتون بووت» الخاص به ومعطفه الرث، ثم وهو يفتش أسفل الحوض عن كيس قمامة أسود. شاهدته وهو يتجه إلى البوابة خلال الصقيع المعتم، وهناك، واقفة على السلالم الأسمنتية أمام باب البيت الأمامي، تحت أُسكفة الباب المعلق عليها خيط اللمبات المنطفئة المثير للشفقة، فكرت كيف وقف أبي في الماضي مفرودًا كرجل مثبت من ظهره على جذع شجرة. لم ينحنِ أبي إلا عندما تداعت صحة أمي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان أسوأ شتاء منذ خمسين عامًا، شديد البرودة لدرجة أن المطر كله تجمد وأصبح كرات أو رقائق أو ثلجًا ذائبًا، فامتلأت الشوارع والأسقف والحدائق به. كانت برودته شديدة لدرجة أن التربة أصبحت جامدة كالأسمنت، فاضطر حافرو القبور في كل مكان أن يذيبوا الأرض بملاءة قبور ساخنة قبل أن يحاولوا الحفر بعمق ستة أقدام. كان الشتاء الأسوأ منذ خمسين عامًا، وبداخل جدران روحي الباردة الجامدة، شعرت وكأن هذا الشتاء دام خمسين عامًا. إنه الشتاء الذي ماتت فيه أمي، والشتاء الذي فقدت فيه عملي، والشتاء الذي رجع فيه أبي على الطريق صباح الكريسماس، حاملًا معه كيس قمامة أسود منتفخًا لأن به كلبًا ميتًا.

وعلى الرغم من أننا في مثل هذا الوقت نعتاد تجهيز الديك الرومي وطبخ الكرنب وسماع نقر كفوف «فيلو» على الباب الخلفي، هذا الكريسماس وقفت أنا وأبي في الصقيع في الخارج، في مشتل زهور، نحفر حفرة سطحية في الأرض الصلبة أسفل المقعد التذكاري. نتوقف كل بضع مرات لننظر بعيدًا إلى منظر الخليج الذي لا يغيره الزمن، إلى المنارة التي تومض بضوئها الأحمر: ومضة خفيفة تكسر الظلمة، ثم بعد عشر ثوانٍ، ومضة أخرى.

عشر ثوانٍ وثلاث.. بلا حاجة إلى الرسوم البيانية والبهجة المصطنعة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هكذا أقيسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آخر أيام البقرة

ترجمة: ريم عبدالرحمن

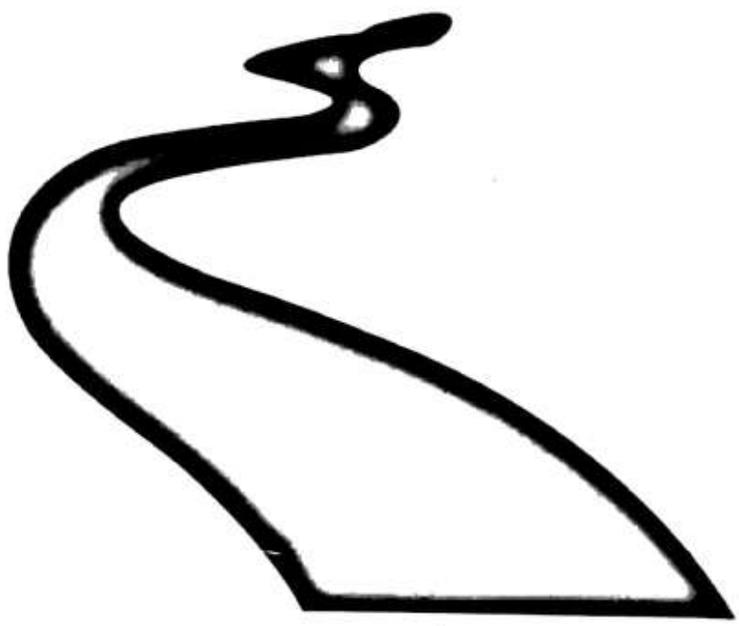

عن المؤلف

«كيفن باري»

صدر لـ"كيفن باري" ثلاث مجموعات قصصية: "الممالك الصغيرة»، و»الظلام يعم الجزيرة»، و»موسيقى الريف القديمة»، كما صدر له أيضًا ثلاث روايات: «مدينة بوهان»، و»بيت الخنفساء»، و»Night Boat to Tangier". فازت روايته " مدينة بوهان» بجائزة دبلن الدولية للأدب لعام ٢٠١٣، كما فازت « بيت الخنفساء» بجائزة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«جولد سميث» لعام ٢٠١٥. احتلت روايته «قارب ليلي إلى طنجة» مكانًا في القائمة الطويلة لجائزة البوكر لعام ٢٠١٩. تُرجمت أعماله على نطاق واسع. كما أنه محرر في مجلة «Winter Papers"، وهي مجلة سنوية للفنون والثقافة.

هناك حقيقة لا جدال فيها وهي أن مدننا تُصنف على أساس النوع البشري. فقط انظر حولك، وعندها ستجد أنه من السهل تمييز مدينة من أخرى. فعلى سبيل المثال، إن المدينة، التي يسكن فيها «فولي»، هي بالقطع امرأة - استنشق هواء مصبات أنهارها المالح - ولكنها ليست امرأة رقيقة أو مهذبة. في الواقع، هي عجوز عنيفة. لا يمكنك توقع حالتها المزاجية. لذلك، يستشيط «فولي» غضباً في وقت العصر يومياً، ويغلق الباب خلفه بقوة.

سار «فولي» بمحاذاة نهر صغير يؤدي إلى الريف. اليوم، هذا النهر الصغير متسخ جدًا، فيه شيء متعفن للغاية، أو شيء حي للغاية. كان «فولي» يمشي بجانبه ويستنشقه، ولكنه ليس مهتمًا بالأمر. هذا المخلوق الذي نتعامل معه ضخم ومتحير وذو خطوات ثقيلة. فهو يصارع أفكاره؛ ويتذكر الشجارات العنيفة مع والده في الشارع.

هذه هي أشد الأيام حرارة في فصل الصيف، إذ يشعر البلد بثقل شديد. هناك معدل نمو هائل، وهذا يصيب «فولي» بالإعياء. تصيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأيام الأخيرة من شهر أغسطس «فولي» بالاختناق. يمكنه أن يرى عبر مصبات الأنهار تلال «كلير» الخبيثة. هل التلال تكتئب كما يزعمون؟ نعم، بالتأكيد. عندما يدخل «فولي» يده الضخمة في جيوب بنطاله الجينز الضخم، تهتز السياج بالطيور، التي تقف فوقها. يمتلك «فولي» عيونًا زرقاء دامعة وحساسة. تتبعت عيونه الطين الجاف على الطريق. هناك على طول الحواف زهور برية - «بايب وورت»، والجريسة، والبرسيم، وال«بارناسيا». يبدو منظرها شجيًّا ومتناغمًا للغاية - إنها تزدهر وتلمع لـ«فولي»، ولكنه لم يهتم بها.

غنى والده أغنية "Sean South of Garryowen" عن أفراد الجيش الجمهوري الأيرلندي الذي يقاوم الحكم البريطاني، وأغنية "Dropkick Me Jesus"، التي تصوِّر المسيح كأنه لاعب كرة يمكنه جعل الفرد يتخطى الصعاب بركلة، و"The Broad Black Brimmer of the IRA" عن طفل فقد والده قبل أن يولد. كان والده أحد أفراد الجيش الجمهوري الأيرلندي. كان لديه إحساس عالٍ جدًّا، وطريقة خاصة في التعامل مع النساء.

هناك كلاب في مكان ما، وصوت أزيز ممل لحركة المرور للطريق السريع؛ بعيد مثل صوت حلم ممل، بالإضافة إلى صوت منشار.

سار «فولي» بمحاذاة الماء بعد ظهر ذلك اليوم من شهر أغسطس،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعبر ظل مصنع الأسمنت. كان لون الحشائش والقصب رماديًّا بسبب عوادم المصنع. فهذه المدينة تعد من المدن التي تدمي عينيك احمرارًا، و»فولي» يعرف هذا جيدًا. لقد أمضى سبعة عشر عامًا في محطة بنزين «تيكساكو» بالقرب من هنا، في مكان مثالي للعمل كالعبيد.

في البداية، كانت المحطة عبارة عن مضختين بجوار كشك صغير قذر لجمع النقود. وفي يوم، تساقطت أمطار غرب أوسطية على السطح البلاستيكي. وحدث حريق كهربائي بسبب غلاية، وربما كان «فولي» مستريحًا، ونائمًا في العسل، ويحل الكلمات المتقاطعة. جلس في الكشك منذ وقت قريب. كان أمير الساحة الأمامية لمحطة البنزين. عرف الزبائن بالاسم؛ الأولاد من مصنع الأسمنت، ورجال الأعمال من مقاطعة الـ»ريهين»، وبعض السكان المحليين غريبي الأطوار. كان «فولي» ثرثارًا جدًّا في تلك الأيام؛ فقد تحدث عن ممتصات الصدمات، والتهابات الصدر، ومجلة «أربعة أربعة اثنان» لكرة القدم. تحدث عن الحوادث المثيرة للجدل في العمود الصغير لعدد يوم الأحد. ولكن جد جديد وتغيرت الأمور كليًّا. اشترت شركة «ستيت أويل» «تيكساكو»، وأُزيل الكشك. ثم بُني مبنى جديد مكيف له واجهة زجاجية، وأبواب أوتوماتيكية، ووحدات تبريد. وجد «فولي» نفسه مع زملاء عمل. كما أنهم جعلوه يرتدي الزي الموحد، ووضعوا طاقية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حمراء زاهية فوق رأسه. وبدؤوا يتناولون الكرواسون. ثم وضعوا كشك ورد، وبدؤوا يبيعون كاميرات تصوير تحت الماء لاستعمال المرة الواحدة - تعد الأفضل أو من المفترض - لتصوير الشعاب المرجانية في «شانون». ذات يوم، ذهب «فولي» إلى المشرف.

قال «فولي»:

- تعالَ هنا! أنا أريدك.

- نعم؟

قال:

- أريد أن أسأل عن شيء، لكي أعرف فقط.

- نعم؟

- هل نحن محطة بنزين؟ أم نحن ممر للتسلية؟

- هل تلاحظ أن طريقتك في الكلام...

- لا تدقق مع طريقتي، هل نحن سوبر ماركت؟

- الآن، اسمعني...

صائحًا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا نحن بالضبط؟ هل نحن أسعار مجنونة؟

- لا داعي لطريقتك هذه، إنني أجدها...

- سوف أريك طريقتي!

اندفع «فولي» نحوه، وهكذا انتهى الأمر.

- لا تأتي إلى هنا مجددًا.

هذا ما قيل لـ«فولي»، وهذه كانت نهاية السبعة عشر عامًا من العمل هناك.

بلغ طول «فولي» ١٩٥ سم في صباح عيد مولده الرابع عشر، وكان عرضه نصف طوله. هذا هو الهيكل الضخم الذي نتحدث عنه. كان طفلًا مهرجًا. كان والده يخبره يوميًّا أنه يصلح للسيرك. لم يكن هناك زي مدرسي يناسبه في القرية كلها؛ أفضل ما توصل له والده هو الحصول على زي متين من تجار على طريق «دوك»، يبيعون زيًّا له شكل رقم سبعة من الرقبة، ومخصص للصيادين الضخام الذين يُرسلون لمواجهة مخاطر منطقة «أيريش بوكس».. المحمية البحرية التي تمتد على جنوب غرب الساحل الأيرلندي. لكن كان «فولي» وهو في الرابعة عشر يرتديه لمواجهة الأخوين. في الطقس البارد، كان هناك جهاز في الفصل يتعطل، ولكي يعود إلى العمل، يجب أن يأخذ ضربة قوية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه أصبحت مهمة «فولي». كان المعلم يصيح بصوت أجش خشن:

- "فولي»! اضرب هذا الجهاز يا ولد! أنت جيد في شيء على أية حال، أيها الغبي الضخم.

سار نحو الجهاز على مهل، والأولاد يصنعون موسيقى بأفواههم - دادا داااااه دا دااااه داا - يندفع «فولي» نحو الجهاز ويضربه بكف مفتوحة، فيعود هذا الشيء إلى العمل من أثر قوة الضربة، ثم تسود حالة من الهرج في الفصل.

كان الجرافون ينادون من أغوار القصب، ويقفون أيضًا على أطراف أصابعهم، ويغنون لـ»ميريل هاجارد»، ولكن «فولي» لم يعرهم أدنى اهتمام. كان يفكر في الوقت الذي ألقى فيه ذلك الأبله على الأرض، ووضع ركبته على حلقه، وكان بإمكانه تحطيم قصبته الهوائية إلى الأبد، ولكنه لم يفعل، وترك ذلك اللعين يرحل.

أخبروه بأن يحاول أن يبرز الإيجابيات. وبالتأكيد هي لم تكن قرية سيئة طوال الوقت. لقد قضى أوقاتًا لطيفة. على سبيل المثال، لم يضطر لخوض أي تجربة رومانسية. فهذا يحدث في الأحلام. بالطبع هناك رجال مغرمون يتغنون بالحب كثيرًا، الحب الذي يضيء كل فرد منا. ولكن الحمد لله، لم يقترب الحب من قريب أو بعيد من «فولي». ليس قبل أن يتم السادسة أو السابعة والعشرين من عمره،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويصبح طوله مترين. هذا القرد الكبير. ليس لأنه لم يكن لديه بصيص من الأمل، لكن ربما، ربما فقط... هذا شاب يسمع الكثير من موسيقى الـ» كانتري»، والموسيقى الغربية حتى إنه أصبح يصدق أي شيء. ولكنه لم يحاول تخيل تفاصيل هذا الشيء. لم يتخيل أنه يمكن أن يحدث هذا الشيء أصلًا. هل هي فعلًا هبطت من السماء المرصعة بالنجوم على شارع «أوكونيل» يوم سبت؟ سارت نحو هذا الضخم الذي يدعى «فولي»، وربتت على كتفه؟ واستقرت معه، وربت أطفالًا ضخامًا؟ لن يحدث هذا، ولا حدث سابقًا، وكان من الجيد التوقف عن تخيل الفكرة من الأساس.

لقد سار إلى الأمام. كانت هناك بداية غير مبشرة للموسم الجديد - تعادلان وخسارة - يعقد حاجبيه عندما يفكر في الإنذارات التي حصلوا عليها. من الجيد ألا تقول شيئًا سلبيًّا عن «مانشيستر يونايتد» أمام «فولي»، وإلا السحب العاصفة سوف تنعقد، وعندها ستتمنى مغادرة المكان سريعًا. كان يرتدي قميص رقم سبعة المكتوب على ظهره « كانتونا». إنه أكبر مقاس استطاع رجال البريد إحضاره، ولكن ما زال لا يناسبه. تراه في المساء يجلس على كرسي في الزاوية، في الظل، مع مكسرات محمصة، وزجاجة نصف لتر تبدو مثل الكشتبان في يده. فإذا كنت ذا طبيعة حساسة، سوف تؤثر فيك رؤيته هكذا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اتبع «فولي» جدول النهر الصغير، ومر وراء المصنع. ويسرع طيار الجدول عندما يمر بالمنحنى الذي تنتهي عنده حدود مدينة «مانجريت». كان هناك شيء يشتت الانتباه أمامه على الطريق. هناك بعض الصبيان متجمعون عند نهاية ضفة الجدول، وكلما اقترب منهم، ازداد قلقه، لأنه يمكنه أن يرى لمعة حليهم الذهبية في شمس الأصيل. كانوا يربطون شعورهم بشرائط ويرتدون قمصانًا بألوان فاقعة. لديهم أنوف يقظة وعيون محدقة. كان هناك ستة منهم، لا، سبعة، هناك ثمانية منهم، عددهم تسعة؟ المسافرون.

- ما القصة يا زعيم؟

- ما القصة أيها الرجل الضخم؟

- لدينا كائن ضخم هنا يا شباب. انظروا!

وقفوا في نصف دائرة ليغلقوا الطريق، وكانوا يبدلون أماكنهم، وتحركوا حول المكان وكأنهم يقفون على جمر، وأصواتهم فظة للغاية.

- إلى أين تتجه يا سيدي؟

- هل تتجه إلى التلال؟ نعم على ما يبدو.

- تعال إلى هنا، أنا أريدك؟ أين يبقونك، أيبقونك في منزل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ما الذي أتى بك إلى هنا يا سيدى؟ وما حجمك أصلًا؟ ههه، يجب أن يكون طولك مترين؟

- أخبرني ولا تزيد في الكلام. ما حجم هذا الشيء؟ يجب أن تعتقد النساء أنك من «ليوباردزتاون».

قال «فولي»:

- اسمعوا الآن! هذا النوع من الكلام أنا لا أقبله.

- لديه لسان!

- تعال هنا الآن وتعامل ببساطة مع الأمور. أين تسكن يا صديقي؟ هل تعيش داخل المدينة؟ هل تعتني بك وزارة الصحة؟

اقتربوا منه، وتغيرت نغمة الحوار لنغمة هادئة كأنهم يبوحون بسر.

- اسمع! ستفعل لنا معروفًا، أتسمعني؟ ترى ما هو، نحن ينقصنا مجموعة صغيرة من الكرات لنلعب الجولف في «مانجريت».

قال «فولي»:

- هل تستهزئون بي؟ أنتم يا رفاق لم تعودوا تلعبون هذه اللعبة.

- أتقول علينا كاذبون؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقدم الزعيم، وفتح ذراعيه كأنه مصلوب، ونظر إلى السماء في معاناة، وصرخ من أعماقه:

- تماسكوا يا شباب!

كان ينبغي أن يكون واضحًا مَنِ الزعيم؟ فلون قميصه بنفسجي أنيق، وربط شعره بعدد أكبر من الشرائط، ولمعت حليه الذهبية في الشمس، وضرب الأرض بعصاه.

- تماسكوا يا شباب! من نتعامل معه هنا ليس عجوزًا مغفلًا. أنت محق يا سيدي. نحن لا علاقة لنا بلعبة الجولف. الحق يقال. نحن نواجه مأساة. «مارتن» هذا - القزم - أمه توفيت في «بالاس جرين». «كاثلين» المسكينة! فليرحمها الرب هي وكل أحبائها. والمشكلة التي لا دخل لنا بها أننا لا نملك بضعة جنيهات لعمل الجنازة. لذلك، ساعدنا يا سيدي. هل ستساعدنا؟ «مارتن» في حالة سيئة.

قال «مارتن»:

- أنا في حالة سيئة يا سيدي، سيئة جدًّا. وأنا أؤكد لك أنه ستكون هناك صلاة جنازة.

قال الزعيم وهو يضرب الأرض بعصاه مجددًا، بينما ابتسم «فولي» فقط:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اصمت الآن!

قال «فولي»:

- ابتعدوا يا سادة! سوف أمضي في طريقي.

ضرب الزعيم الأرض بعصاه مجددًا، وزفر بقوة من أنفه، ونظر بعيدًا إلى تلال «كلير»، وقال:

- نحن لن نعترض طريقك. ضع يدك في جيبك وساعدنا.

التفوا حوله مجددًا، وهم يتبادلون الأماكن، ويتزاحمون مع بعضهم بعضًا، لديهم ثبات رهيب، لكن «فولي» لا يتحرك، ولا يتكلم. اقترب منه الزعيم خطوة، وقال له:

- من تظن نفسك؟

ابتسم «فولي»، ثم قال:

- انظر! نحن في موقف صعب. ألا يمكننا أن نكون متحضرين؟ هل يمكننا أن نهدأ أنفسنا؟ هل يمكننا أن نصبح أصدقاء؟ انظر! سوف أقول لك شيئًا. هلا تصافح يدي؟

ابتسم الزعيم، وهدأت حدة المفاوضات. ابتسم في وجه «فولي»، يبدو أنه شخص عاقل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال:

- بالتأكيد، بالتأكيد سأصافح يدك.

صافح «فولي» الشاب برقة، وسرت رعشة باردة بينهما تشبه الشعور عندما يلامس السوط المياه، وأيضًا مثل الشعور ليلًا بألم في عضلة الساق بسبب ذكرى سقوط من على السُلم. وهو موجود أيضًا بشكل ما عند رؤية الحشد الكبير لطيور الـ«زرزور»، عندما يحلقون ويلفون كالدخان في السماء وقت المساء. أمسك «فولي» يد الشاب ودام هذا الشعور للحظة واحدة.

قال «فولي»:

- أنت الابن الرابع بين إخوتك، وولدت في موقف سيارات خارج مدينة «تاربيرت». وستموت في أصيل يوم رطب من مايو المقبل. كما أرى، سيارة بيضاء سوف تخرج عن الطريق عند مفترق طرق. هي سيارة «هيتاشي»، إذا كنت أراها جيدًا. ويمكنني أن أخبرك أيها البرعم أنها لن تكون وفاة جيدة.

- ماذا تقول لي؟ ماذا تقول لي أيها الضخم غريب الأطوار اللعين؟

انتزع الزعيم يده ورجع خطوة إلى الوراء، وهكذا فعل الآخرون أيضًا. أدَّى «فولي»، الواثق الآن، حركة في الهواء كأنه يسحق ذبابًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومضى في طريقه. تبعه الشباب للحظة، وسخروا منه، ولكنه يعرف أنهم لن يهاجموه.

تقلص الجدول عند مكان تدفقه، ونضح المصب برائحة كريهة تشبه رائحة البيض. يمهد خمول المستنقع الطريق لتدفق بطيء لنهر ال»شانون». عبر المياه، بدت تلال «كلير» غير باهرة. عند تلك النقطة، ستكون منبهراً بتلال «كلير» منذ وقت طويل. هناك طريق يتفرع من الجدول، ومن هنا يمكنك تتبع ضفة النهر وصولًا إلى المدينة، و»فولي» المرهقَ الذي يمشي على الطريق المتفرع. يتصبب العرق من إبطي «فولي»، ويبقع قميصه رقم سبعة المكتوب عليه «كانتونا» من الخلف. كانت الطيور آكلة المحار تعمل على الصخور، وطيور «أبو طيط» متجمعة في سرب، لكن «فولي» لم يرغب في أن ينظر. لقد ركز أفكاره على خطوات قدميه فقط. ارتفع رأسه الثقيل بين الحين والآخر، ليجد المدينة تقترب أكثر فأكثر.

من الأصعب النظر إلى الوراء. سيعود «فولي» إلى المنزل في المساء، يخلع حذاء العمل، ويضرب قدميه في بعضهما، ويرقص رقصة ال»هاكل باك» في منتصف الغرفة. يحرك فخذيه، ويمد شفته السفلى إلى الأمام. كان يتعامل مع زوجته بعنف. كان يصدر أصواتًا مزعجة وهو يتناول عشاءه، ويضرب الطفل الكبير على ركبته الضخمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقول:

- هل سخنتِ المياه؟ هل بدأت في تسخين المياه من الأساس؟ كيف يمكنني أن أستحم؟

- إلى أين أنت ذاهب يا «دان»؟

- إلى الخارج! أنا ذاهب إلى السهول يا «بتسي». سوف أجد لنفسي منزلًا حيث يتجول الجاموس.

ألقت «بتسي» الصحون لاحقًا في الحوض بعنف حتى كادت تنكسر. ثم دخنت سيجارة، ومضغت بعض التبغ. ثم أمسكت التليفون وشكت همومها لإحدى أخواتها. بعد ذلك، صاحت في الطفل، وعقدت حاجبيها في أثناء تفكيرها في الهروب. ثم بكت بحرقة لأنها وحيدة. كان «دان» يسهر في منطقة «دوك رود»، يتنقل من ملهى إلى آخر، ويدخل في علاقات عابرة مع فتيات ليل خلف أسوار المطاعم. كان يذهب إلى الرقص في منطقة «درامكين»، ويتأرجح مع الفتيات على الأرضيات، ويعطي وعودًا واهية تحت الأضواء الملونة. كان يغني "Are The Stars Out Tonight"، في أثناء اصطحابه لهن إلى المنزل.

كانت المرة الأولى التي يرفع فيها يده عليها في ليلة عيد ال»هالوين»،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان «فولي» يغمس التفاح - ذهبت مباشرة إلى الحراس. ومن بعدها إلى المحكمة. وكان الحكم أنه لا يجوز له أن يقترب منها على بعد أكثر من مئتي متر. وأوضحت له أنه يمكنه أن يهتم بالأبله الآخر أيضًا، وانتقلت هي إلى مدينة «تيب»، أو ربما كانت مدينة «نيناج». أحبت بائع كتب، وتوفيت وهي سعيدة جدًّا. لقد انطفأت الأضواء على أولاد «فولي». لم يستطيعوا الاستمرار. استمرت المواجهات العنيفة يوميًّا، مثلما يحدث في موسيقى الـ» كانتري»، وكانت أسوأها عندما بدأ «فولي» بالفوز.

كان يتجول في ضواحي المدينة، ويسلك طريق «دوك رووود» ليصل إلى قلب المدينة. لقد ابتعد عن المياه ودخل متاهة شوارعها، فتحسن مزاجه. يعزيه نمط الحياة الروتينية. سوف يذهب إلى الظل والرطوبة في شقة بالطابق السفلي حيث ينمو الفطر على الجدران. إنه ليس بالمكان الجيد لتستريح فيه، لا، لكنه قريب من الملهى الذي يذهب إليه حيث اعتادوا جلوسه في الظل هناك. (يسمونه هناك «لو فيرينجو»، ولكن لا يقولون ذلك في وجهه). إنها قريبة من المكان الذي يشتري منه السمك. كما أنها في المكان الذي يتمشى فيه وقت الأصيل بجانب جدول النهر، وكلنا لدينا أنهارنا. سوف يضع ثمانية أسماك ماكريل في مقلاتين، وأربع عشرة حبة بطاطس في حلة كبيرة. ثم يشغل التلفزيون على قناة مئتين وعشرين ليتفقد أخبار كرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القدم. بعد ذلك، يتنهد ويمدد جسده، ثم يأخذ مفاتيح السيارة من صحن الفنجان بجوار الباب. في تمام الساعة الثامنة، سيقوم بتشغيل السيارة، ويضع قدمه مقاس سبعة عشر على الأرض، ويشغل الراديو، ويمسك الميكروفون:

- أربعة عشر هنا، القاعدة. أنا خارج الآن.

و»أليس» من القاعدة يقول:

- حسنًا «توم»، هل يمكنك أن تأتي لتوصل أحد من «تومون جيت»؟ من «جيت واي» بار، إنه «سوليفان».

- امم، كيف حاله؟

- لا يبدو جيدًا يا «تومي».

- سأرى ما يمكنني فعله.

ولمدة ثماني ساعات سيتجول في المدينة بأكملها - «تومونديجيت» و» كيليلي»، «بروسبكت»، «مونالين» - وهناك شيء من الهدوء في هذا.. والهدوء يتراكم، ويُبنى كالمبادئ. ربما سوف يقلك «فولي» يومًا ما. سواء كان لديك القليل عند «ذا جيت واي»، أو خسرت في سباق الكلاب، أو وقفت تحت المطر مع أكياس بجانب قدميك خارج محل «روكسبورو تيسكو».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل أنت مشغول الليلة؟

- نعم، لقد واصلنا العمل. هل تعلم؟ إن الزحام شديد بالنسبة إلى يوم الإثنين.

وسوف تراه رجلًا مسالمًا، عملاقًا هادئًا يقود سيارة «نيسان». أحيانًا تكون لمسة صغيرة كافية؛ تعطيه الأجرة، فيعطيك الباقي، ثم تشعر بالرعشة الغريبة، ببرودتها. يمكنه أن يعبِّر بالضبط عن كل الحالات ما عدا حالته هو. سوف تصبح المدينة خاوية ومقفرة وعرضة لجميع التقلبات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حيث المياه أكثر عمقًا

ترجمة: يمنى خالد

عن المؤلفة:

كلير كيجان

تضم أعمال "كلير كيجان" الأدبية قصة "أنتاركتيكا"، و"سِر في الحقول الزرقاء"، وقصة قصيرة طويلة بعنوان "تبني". اُختيرت مجموعتها القصصية الثانية "سِر في الحقول الزرقاء" لتكون كتاب العام لـ2010 من قبل الروائي الأمريكي "ريتشارد فورد"، وفازت بجائزة "إيدج هيل" التي تُمنح للمجموعة القصصية الأقوى في بريطانيا وأيرلندا. فازت قصة "تبني" بجائزة "ديفي بايرنس" للقصة القصيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتي كانت الجائزة الأعلى قيمة نقدية في العالم التي تُعطى لقصة واحدة في عام 2009.

جلست الخادمة الأجنبية على حافة الرصيف البحري تصطاد، وبجانبها جبن أخذته من طبق السلطة على وجبة العشاء وصندلها الجلدي. نزعت ربطة شعرها المُصفف على هيئة ذيل حصان وهزته ليتنفس. سبحت روائح بقايا الطبخ وفقاقيع حوض الاستحمام باتجاه الأشجار. وضعت بسلاسة مكعب جبن في الخطاف ورمته بعيدًا. كانت وضعية معصمها جيدة؛ فهي تشكل القوس المثالي في الهواء ثم ينخفض ويختفي. تشده ببطء نحوها حيث تكون المياه أكثر عمقًا. تمكنت من اصطياد سمكة «برمون» جيدة بهذه الطريقة من قبل.

Telegram:@mbooks90

لم تتمكن من النوم جيدًا مؤخرًا؛ فقد كانت تحلم الحلم نفسه. كانت تحلم بأنها والصبي في الفناء في وقت المساء. تُطير الرياح الملابس على الحبل وتداعب الأشجار بعضها بعضًا من فوقها، ثم ترتجف الأرض. تتساقط النجوم وتجلجل حول أقدامهم مثل القطع النقدية. ينتفض سقف الحظيرة ويرتفع مثل ورقة شجر معدنية كبيرة محتكًا بالسحب. تنشق الأرض وتنفتح ويُترك الصبي واقفًا على الجهة الأخرى.

تصرخ قائلة:

- اقفز! اقفز! سأمسك بك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبتسم الصبي؛ فهو يثق بها.

تفتح ذراعيها على مصراعيهما وتقول:

- بالله عليك! اقفز! إنه أمر سهل للغاية.

يركض سريعًا ويقفز. تتخطى قدماه الفتحة الأرضية، ولكن يحدث أمر ما، هو الأغرب على الإطلاق. تنصهر يداها ويُسحب الصبي إلى الوراء ويبتلعه الظلام. تقف الخادمة الأجنبية على الحافة وتشاهده وهو يقع.

يراودها هذا الحلم في بعض الأحيان مرتين في الليلة نفسها. نهضت البارحة ودخنت سيجارة في الحمام وشاهدت القمر. انعكس الضوء على الحنفيات المطلية بالذهب المنغمسة في الحوض المصنوع من البورسلين ورسم ظلال عليها. غسلت أسنانها وعادت إلى السرير.

حفرا معًا هذا المساء منقبين عن الدود وحملا معدات الصيد الخاصة بهما إلى شاطئ البحيرة بالأسفل. عدلت الخادمة الأجنبية القارب نحو الجهة الصحيحة ودفعته نحو الماء، وأمسكت به من أجل أن يصعد الصبي. وبينما هي تجدف بجانب ظل الرصيف البحري، قالت:

- هيَّا بنا، إلى الأمام!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الصبي يرتدي قبعة بيسبول فريق مدينة «سولت ليك» التي أحضرها له أبوه من رحلة عمل. كثُر النمش على وجهه، وكان الجرح على ركبته يتعافى. تدلت يده من جانب القارب ولمست سطح الماء في أثناء تجديفها. تجمع الناموس بسرعة وشكَّل سحابة صغيرة حول القارب بمجرد أن رفعت ألواح التجديف وتركته يسبح مع التيار.

سأل الصبي:

- ألديهم حشرات بين الشعاب المرجانية؟

يتغير صوت الخادمة الأجنبية عندما تتحدث عن وطنها. تحدثت كما لو أن باستطاعتها الوصول إلى صفحات الماضي ولمسها بيديها. وضعت الطُعم في ساريته، وحكت له كيف تعلمت غوص «السكوبا» والغوص بالقناع والرمح، وكيف اكتشفت العالم الخفي في قاع المحيط. أخبرته عن الجبال العملاقة حيث سبحت الأسماك في مجموعات وغيرت اتجاهها معًا كلها فجأة. حكت له عن الطحالب التي طفت حولها، وعن السلحفاة ذات الصدفة الرائعة على ظهرها السابحة بجانبها، وأحصنة البحر.

قال الصبي:

- أريد أن أمارس رياضة غوص «السكوبا» هنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فردت عليه:

- لا نستطيع يا حبي. إن بحيرتك غارقة في الظلام الحالك ومليئة بالطمي. إن القاع ليس رمليًّا مثل قاع المحيط؛ فهو عبارة عن طمي. يبلغ عمق الطمي أكثر من ارتفاع رجلين بالغين واقفين فوق بعضهما. إن الوضع خطر للغاية للممارسة تلك الرياضة.

صمت الصبي للحظة. صهلت أربعة أحصنة في المرج واتجهت إلى الأسفل ناحية التل وأصدرت صوتًا عاليًا وهي تتوقف عند حافة الماء.

قالت وهي تضرب حشرة على ذراعها:

- هيَّا بنا نلعب «كيف يبدو؟».

هز الولد كتفيه وقال:

- حسنًا.

بدأت أولًا وقالت:

- يبدو هذا القارب مثل نصف جوزة برازيلية كبيرة.

قال لها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يبدو رأسك مثل الكرنب.

فقالت له:

- إن لون رموشك مثل لون «البالومينو».

فسألها الصبي:

- ما هذا؟

فردت عليه:

- حصان، سأريك صورة في وقت ما.

فسألها:

- ألديَّ عينان مثل عيني حصان؟

فقالت له:

- دورك.

فقال:

- إن الروائح التي تخرج منك مثل رائحة الفاصولياء المطبوخة.

فقالت له:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ورائحتك مثل الصمت المدقع.

نظر إلى عينيها وقال:

- أنتِ مثل الأم.

فقالت:

- بمناسبة الحديث عن الأمهات، أوشكت أمك على العودة. من الأفضل أن نعود إلى المنزل.

أمسكت ألواح التجديف وبدأت في العودة إلى الشاطئ.

اقترب عيد الفصح. جلسا قبل العشاء في المخبأ وصنعا بطاقات من ورق سميك وغالٍ اشترته والدته من وسط المدينة ونادا بعضهما بعضًا بـ»الشريك». كتبت على بطاقته: «عيد فصح سعيد يا شريك. كل الكثير من البيض». أمسكت بيديه وكتبت له الرسائل، ولكنه أخبرها ماذا تكتب. رسم القبلات بنفسه في أسفل البطاقة، ورسم في الواجهة شكلين مثل العصا على خلفية بنية.

سأله أباه، وهو رجل ضخم، وأصهب له أجداد من أيرلندا وعينان ملونتان بدرجة قاسية من الأزرق وقد كان يدخن السيجار وهو يشاهد قناة "CNN" ويرفع قدميه، سأله:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ماذا رسمت؟

فرد الصبي:

- غواصي ال«سكوبا».

ابتسم أبوه وقال:

- تعال إلى هنا يا بني.

نهض الصبي وجلس على ركبتي أبيه.

قال الأب للخادمة الأجنبية:

- خذي قسطًا من الراحة يا عزيزتي.

نهضت، ووضعت الأطباق في حوض المطبخ في طريقها، ثم اتجهت نحو الظلام وأغلقت الباب بقوة.

تسمع الخادمة الأجنبية صوت تدفق مياه المرحاض واندفاع مياه حوض الاستحمام في المواسير في أثناء جلوسها عند البحيرة. كانت الأم طويلة، وشقراء، ولديها عظام وجنتان مرتفعتان، وتعمل في وكالة عقارات في وسط المدينة. كانت هي دائمًا من تضع الصبي في السرير؛ فقد كان هذا هو الاتفاق. كانت تحمم الصبي، وتقرأ له قصة «بيض أخضر ولحم» أو «حيث البرية تعيش». كانت أمه على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعليم جيد؛ فأحيانًا، كانت تقرأ من كتاب شعر لـ«روبرت فروست» وتشغل موسيقى «موتسارت» على «الاستيريو» «مسجل الصوت». تذهب الخادمة الأجنبية المقيمة فيما بعد لتتفقد ما إذا كان الصبي لا يزال مستيقظًا وتطبع على وجهه قبلة قبل النوم.

سافروا في الشتاء الماضي إلى الشمال، في رحلة طيران استغرقت ثلاث ساعات لقضاء عطلة نهاية أسبوع طويلة. أقاموا في فندق في غرفة في الطابق التاسع عشر؛ ولها شرفة صغيرة وتطل على منظر من «مانهاتن». تأنقت الأم في هذا المساء وارتدت فستانًا فضفاضًا من الحرير ومعطفًا من فرو «المنك». احتضنت ذراع زوجها وخرجا لتناول العشاء. طلبت الخادمة الأجنبية بيتزا بالمشروم وزجاجتي «كوكاكولا» من خدمة الغرف، ولعبت مع الصبي «السلم والثعبان». رمى الزهر، وصعدا ونزلا السلالم المرسومة على لوحة اللعبة حتى موعد النوم. ظلت الخادمة الأجنبية مستيقظة. أخذت حمامًا ساخنًا ولفت نفسها في روب حمام منفوش مطبوع عليه علامة الفندق. فتحت باب الشرفة وشاهدت الأفق من الكرسي ذي الذراعين. تحول قطرات المساء إلى الظلام خلف المباني الأطول. لم تجرؤ على الخروج إلى الشرفة والنظر إلى الأسفل. كتبت رسائل إلى الأهل في بلدها عوضًا عن ذلك، تخبرهم بأنها ربما لن تعود في عيد الميلاد على أية حال، وعن كيف اشتاقت إلى المحيط. أخبرتهم أيضًا أن الأم والأب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعاملانها جيدًا، وهي لا تريد شيئًا آخر سوى ذلك.

كان الوقت قد تأخر حين عادا. غلبها النوم وهي جالسة على الكرسي، ولكنها استيقظت على صوتيهما يتحدثان في الغرفة. ثم توقف الكلام وخرج الرجل إلى الشرفة. سبح دخان السيجار وهواء البرد القارس إلى الغرفة. أغلق أبواب الشرفة وعاد ليجلس على حافة الأريكة. نظر إلى الخادمة باستعلاء. كانت تفوح منه رائحة البيرة وعطر «بولو» لما بعد الحلاقة. شعرت الخادمة بالبرد يشع من بدلته المصنوعة من الصوف الجيد.

قال لها:

- أتعلمين ماذا سيحدث إذا خسرنا الطفل؟ سنخسر جليسة الأطفال. أبقي أبواب تلك الشرفة مغلقة يا عزيزتي أو ستصعدين على متن أول رحلة طيران عائدة إلى بلدك.

قبَّلها بعد ذلك قبلة غريبة ومقصودة. كانت مثل قبلة أحدهم لك في المطار حين يكون سعيدًا لعودتك، ثم نهض وعاد إلى زوجته.

نهضت بدورها عندما سمعت شخيره وخرجت من الشرفة. دفعت رياح ضعيفة رقاقات الثلج الكبيرة في الهواء مشكلة موجات منها. كانت ليلة من شهر ديسمبر تتخللها أصوات الازدحام المروري. سيحل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عيد الميلاد قريبًا. أمسكت بالسور ونظرت إلى الأسفل. تعالت زمجرة سيارات الأجرة الصفراء وملأت التقاطعات في الشوارع بالأسفل. أخذت نفسًا عميقًا، وتذكرت أنها قرأت في مكان ما أن الخوف من المرتفعات يخفي نوعًا من الانجذاب إلى السقوط. أدركت فجأة أن هذه فكرة مخيفة بالنسبة إليها. إذا لم تفكر في القفز، فهي لن يخطر ببالها حتى أن تقف بجانب الحافة. تخيلت السقوط، وتخيلت كيف سيجعلها تشعر، وأنه سيعني كل شيء للحظات فقط ثم يختفي كل شيء بعدها. تراجعت إلى الداخل وأغلقت الأبواب.

خططوا في الصباح التالي زيارة إلى محل ألعاب "F. A. O Schwarz". كتبت الخادمة الأجنبية اسم الصبي ورقم غرفته على قصاصة من الورق في بهو الفندق وعلقتها في بطانة جيب بنطاله. وقالت له:

- أعطِ هذه إلى الشرطي الطيب إذا تهت.

فقال لها:

- ولكنني لن أتوه!

فردت عليه:

- بالطبع لن يحدث ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حل الظلام الآن أسفل البحيرة. شعرت الخادمة بحركات بين الأشجار على الضفة البعيدة. يوجد في مكان ما في هذه الحقول خنازير برية. أمسك والد الصبي ذات مرة بخنزير، ودفع المال إلى رجل مقابل ذبح الحيوان وملأ الثلاجة حتى آخرها بلحمه. أوشك الجبن على الانتهاء. ذكَّرها صوت الضفادع التي سمعته بصوت السور الإلكتروني في موطنها. علَّمها أبوها ألا تلمسه أبدًا بكفها، ولكن أن تلمسه فقط بظهر يدها. وذلك لأن ردة الفعل ستجعلها تسحب يدها بعيدًا، ولن تمسك بها إذا ما كان التيار لا يزال مستمرًّا. كان دور الآباء يكمن في الأشياء الصغيرة، وفي المسائل العملية مثل كيفية ربط الحذاء، وحزام الأمان في السيارة. سحبت بكرة الصنارة، وتفقدت الطُعم، ورمتها مجددًا. سمعت صوت الطعم وهو يلامس المياه، ولكن لم تستطع تحديد مكان الخيط مقابل السماء.

Telegram:@mbooks90

لا يرى أحد الصبي وهو يغادر المنزل. يتسلل إلى الخارج عبر السلالم الخلفية ولكنه لا يمسك بدرابزين السلم كما قيل له. لا يشكل فارقًا أن عينيه لم تعتد الظلام بعد؛ فقد كان يعرف المنحدر العشبي الذي يؤدي إلى البحيرة. استطاع رؤية بلوزتها الباهتة، وأكمامها المرفوعة، وحركة كوعها وهي ترمي الصنارة. يركض الصبي على الرغم من أنه تعلم ألا يركض أبدًا بجانب المياه. تخرج همهمات صغيرة من صدره مثل تلك التي تصدر عن دمية ابنة عمه حين يقلبها في كل الاتجاهات. تعطيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخادمة الأجنبية ظهرها. لا يصدر صوت لخطوات الصبي؛ فقد كان صامتًا مثل فهد يتحرك على العشب البارد.

لا تدير الخادمة الأجنبية رأسها حتى تلمس قدمه القطعة الخشبية الأولى من الرصيف البحري.

يصيح الصبي قائلًا:

- أنتِ! أمسكيني! أمسكيني!

يركض سريعًا، وتسقط الصنارة من يديها.

تعلق قدم الصبي بشيء ما ويبدو كما لو أنه يسافر إلى مسافة بعيدة، بعيدة جدًّا. تحاول الخادمة الأجنبية المقيمة أن تجد قدميها لتقف وتلف في وقت واحد. يشعر الصبي ببرودة قارسة. وفجأة تحيط به ذراعاها مثلما توقع. ينقلب ويقهقه في حضنها ويصيح قائلًا:

- مفاجأة!

ولكنها لا تضحك.

يسكت الصبي. يشعر بالخطر خارج حدود أحضانها الآمنة. لا يوجد شيء سوى المياه السوداء العميقة وتحتها عالم الطمي الناعم والمخملي خارج تلك الحدود. يصل ارتفاع هذا الطمي إلى مسافة أعلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من طول رجلين بالغين.

تهمس الخادمة الأجنبية قائلة:

- أوه! يا طفلي. اهدأ.. اهدأ.

أريحته وأراح رأسه على كتفها لمدة طويلة، طويلة جدًّا. أحس بصدرها يرتفع وينخفض. قبَّلت شعره الناعم ولمست رموشه ترقوتها. احتضنته الخادمة الأجنبية حتى هدأت دقات قلبيهما وارتفع صوت امرأة ينادي اسم الصَبي. ذهبت بعد ذلك إلى المنزل المضيء وأعطته لأمه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"فيستوس"

ترجمة: رانيا صبري علي

عن المؤلف:

«جيرارد دونوفان»

هو روائي، ومصور، وشاعر أيرلندي، يقيم حاليًّا في «بليموث» في إنجلترا. وصلت رواية «دونوفان» الأولى «تيليسكوب شوبنهاور» إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر في ٢٠٠٣. وكتب بعدها روايات أخرى مثل: «دكتور سولت» Doctor Salt (٢٠٠٥)، و«يوليوس وينسوم» Julius Winsome (٢٠٠٦) وأحدثها «المظلم» Sunless

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٢٠٠٧). تعدُّ رواية «المظلم» نسخة معادة الصياغة من روايته «دكتور سولت»، ولكنها مختلفة تمامًا عنها فيما عدا العناصر الروائية الأساسية. نشر «دونوفان» أيضًا ثلاثة دواوين شعرية: «كولومبوس ينطلق مجددًا (١٩٩٢)، و»الملوك والدراجات» (١٩٩٥)، و»المنارة» (٢٠٠٠).

لم يمضِ وقت طويل بعد حدوث كل شيء، فهم «فيستوس بيرك» أنه على قمة التل لأنه يعرف ما الذي سيحدث له ولأفراد البلدة، تلك الشوارع المسالمة على الهضبة الواقعة بين الجبال والساحل. كان ذلك في الصباح الباكر وضباب المحيط يصل إلى المنازل الأولى ويلتف حول برج الكنيسة. لم تكن هناك رياح منذ أيام، ولكن مع ظهور الضوء الأول، انتشر الضباب على سطح المياه وبين الشوارع الخالية، المسالمة.

جلس وشاهد بهدوء.

شيء ما كان سيحدث.

ذات الشعور الذي دفعه مباشرة من منزله وسريره الضيق في الغرفة العليا حيث يندر الضوء إلى سطح التلة، حيث بإمكانه رؤية كل شيء. كان النهر يتدفق تحت جسر حجري متأثرٍ ببراعم التوت والفراولة الموسمية حول الجبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تابع على طول السلسلة الفضية الممتدة عبر المدينة قبل أن تنتهي في الأمواج. على جانب البحر من المدينة، يختلط هواء المستنقع بالملح على طول الرمل عند الخلجان الصغيرة التي تحمي القوارب الراكدة، بعضها مربوط بالرصيف الحجري في الميناء. مثل النهر، طريق واحد ملتف أسفل المنحدرات من البرية حتى التقى بالجسر ثم خط المنازل التي تؤدي إلى الساحة.

كان قد أتى هذا الصباح، وأمسك بالأعشاب والجذور حتى التقى بالطريق الذي رفعه بخطوات غير متزنة إلى السماء، والحقول الجبلية العالية التي يتلوى عليها القش تحت السماء الأرجوانية. وفي مواسم مختلفة، أحيانًا العشب الأخضر في الطقس الهادئ. على الجانب الآخر من الجبال، امتد سهل مستوٍ من الحطام والرمل إلى الشرق، ثماني ساعات بالسيارة إلى المدن. كان طريق الجسر هو السبيل الوحيد للدخول والخروج عبر الجبل. وهناك طريق آخر مهجور قليلًا، غمرته المياه غالبًا في الأحوال الجوية سيئة، جنوبًا إلى الشمال عبر البلدة إلى أرض المستنقعات والوديان.

من المرتفعات التي رآها على الطريقين اللذين التقيا في المدينة، وفوقه الغيوم السريعة تسابق ظلالها، تغيَّر كل شيء في ظرف ثوانٍ. على هذا الارتفاع شعر «فيستوس» أنه يستطيع أن يرى الماضي والبلدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي كانت مزدهرة يومًا والمتاجر التي كانت يومًا مزدحمة، تحت الضباب المتحول. في هذا الوقت، يزداد عدد سكان المدينة بسبب الموسم السياحي. الوقت الذي تأتي فيه حافلات مليئة بالزوار إلى الجنة المقفرة عبر الأميال القاحلة.

من ألف شخص، تضاءلت المدينة إلى أربعمئة، ومع حلول عيد الفصح هنا، ذهب هؤلاء إلى أقاربهم. كان متأكدًا أن الأوقات الجيدة ستأتي مرة أخرى، والانتظار هو الحل. ستصل هذه الحافلات مرة واحدة على طول هذا الطريق وتفرغ الكنز، الكاميرات وحجوزات الغرف.

لمدة عامين، تسلل الصمت الموحش إلى ذلك المكان الذي كان مشهورًا: الخبيث «مات» أبقى هذا المكان بعيدًا وقد وجدته مرة أخرى. اختفت الأسماك من البحر والقوارب رُبطت. في ذلك الصيف، لم يزر كل من الشمس ولا السياح البلدة في أي وقت. بالنسبة إلى أولئك الذين وصلوا في وسط هذا الجنون، كانت المدينة محطة في الطريق إلى مكان آخر.

أُغلق أحد الفندقين، وزُرعت ممرات المشاة الواسعة الممهدة بأشجار «سيكامور» والزهور، والمقاعد كانت مغطاة بالأعشاب الضارة.

كانت المحلات معروضة للبيع أو مغلقة، وفي البيوت الفارغة، حلت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الستائر محل الأشخاص الذين لم يتمكنوا من بيع ممتلكاتهم وغادروا للانتظار في أماكن أخرى حتى تتغير الأمور. في حدائقهم لافتات «للبيع» صمدت طوال المواسم كالزهور العنيدة. جلس «فيستوس» بهدوء في الصباح البارد. بدت البلدة كأنها مهجورة، لا أحد على مرمى البصر. بسبب الضباب المتدفق من الماء والذي أحاط بالمباني، اعتقد أن البلدة ترتدي حجابًا. لم تحضره لحظات مهمة على الإطلاق في الحياة، وعلى الرغم من أن الأشخاص الأفضل قد يرون أن البقع الزيتية المتحركة مظهر عرضي من مظاهر جمال الطبيعة، فقد رآها «فيستوس بيرك» علامة.

يجب ألا تتغير هذه المدينة، لقد كانت مثالية كما كانت؛ المحيط من جانب وجبل من الجهة الأخرى، آمنة أكثر من أي مكان آخر. هبت ريح حاملة لرائحة الزهور الصفراء وهو مستلقٍ على جنبه على أوراق الشجر والتوت الأحمر التي تساقطت من شجرة جائعة.

في السكون، شاهد جذور الضباب المنتشرة وحاول أن يفهم ما يعنيه قبل التوجه إلى أسفل المنحدر والتغيير لملابس عمله. قاد سيارته الـ»فيات» الصفراء الصغيرة بعد التدريب لسنوات، على طول الطريق شمالًا إلى قرية الصيد على الساحل، على بعد عشرة أميال من المنحنيات الضيقة والجدران الحجرية. كل تغيير للجير، كل لمسة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفرامل، ترسله إلى أحلام اليقظة أكثر وأكثر في الطريق.

مر بمبنى الشرطة الوحيد بمصباح أزرق أمامه. كان للمدينة مركز شرطة خاص بها، إلا أنه أُغلق وانتقل شمالًا بين قرى متفرقة. مرة واحدة في اليوم، يقود شرطي وحيد في البلدة عبثًا بحثًا عن الجريمة قبل أن يعود إلى جانب المبنى والمصباح الأزرق.

كانت قرية الصيد رمادية وصامتة عندما اقترب «فستوس». أوقف سيارته الـ«فيات» بالقرب من مجموعة من الشباك والبراميل بجانب سفينة صيد حمراء بها صفوف من المقاعد الخشبية في الجزء الذي ينقل السياح والبضائع إلى الجزيرة على بعد ساعة من هنا.

كان يعمل على السفينة. لم تكن وظيفة مرغوبة، لكنها كانت كل ما يستطيع الحصول عليه. لا تحتاج إلى شهادة لسحب المرساة، أو لحمل الصناديق والدراجات والمواد الغذائية داخل وخارج السفينة، أو لتوجيه السفينة من وإلى المكان نفسه ستين مرة في الشهر.

قبل أن يتمكن من رفع السلم على سفينة الصيد، صرخ شخص اسمه من نهاية الرصيف. تبع الصوت إلى الحانة المظلمة، حيث جلس مالك السفينة «نيد ماديجان» أمام كأسين من الويسكي. الموقد محترق ورائحة ساندويتش الجبن المحمص في الأجواء.

قال «ماديجان»:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اسمع، لن نبحر هذا الصباح بسبب الطقس، سنحاول بعد ظهر هذا اليوم. تعال، اخلع معطفك واجلس.

بالنسبة إلى «فيستوس»، لم يكن الطقس أسوأ من الأيام الأخرى التي أبحروا فيها، لكن «ماديجان» بدأ بالشرب. لم يرَ أحدًا على الرصيف، ولا توجد موادٌّ غذائية ولا مواد بناء جاهزة للتحميل على السفينة. ما رآه «فيستوس» من نافذة البار كان عبارة عن سور خرساني فارغ مع فتحة مطلَّة على البحر، وليس المكان المزدحم الذي كانت عليه في صباح يوم من أيام الأسبوع.

كانت السفينة الحمراء مربوطة ولا تزال تتمايل في المياه الهادئة، ولا يوجد عمال يحومون حولها مثل النوارس ليجهزوها للإبحار، شعر بالحر واسترخى.

حصل على الوظيفة قبل خمسة عشر عامًا لأن «ماديجان» كان صديقًا لوالده. في ذلك الوقت، كان «فيستوس» قد انتهى للتو من المدرسة وأراد أن يدخَّر لفعل شيءٍ ما، مهما كان ذلك. لم تكن علاماته جيدة كفاية للالتحاق بالكلية. كان بطيئًا في الحساب والقراءة والتفكير عمومًا، ولم يرغب في فعل ذلك مرة أخرى.

أخذ المدرس «فيستوس» جانبًا وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- العباقرة والأذكياء، هما شيئان مختلفان..

ثم أخبره بدرجاته، «جيد» و»مقبول».

- يمكنك تعلُّم التجارة والسفر حول العالم. تذكر أن العديد من المشاهير لا يستطيعون التهجئة.

ثم ضربه على ظهره وأخذ زميلًا آخر له في زاوية الفناء.

تذكر «فيستوس» رؤية وجه زميله الآخر عندما عرف نتائجه أيضًا.. كان يومًا سيئًا. منذ ذلك الوقت، بدأ ما كان من المفترض أن يكون وظيفة صيفية في هذه القرية الصغيرة خارج الطريق شمال البلدة، سحب الصناديق والدراجات والمواد الغذائية على الرصيف من وعلى السفينة.

كان المال جيدًا مقارنة بما كان لديه، ولكن بطريقة ما أصبحت وظيفة شتوية، وقبل أن يعرف «فيستوس»، مر عيد الميلاد الأول وكان لا يزال على السفينة. لم يتعلم التجارة، ولم يقم برحلات، ولا يزال يعيش مع والديه. جاء المزيد من أعياد الميلاد، المزيد من المواسم، المزيد من أيام الصيف الطويلة.

أجَّل خططه المستقبلية حتى أصبح كل شيء واضحًا أمامه. كل يوم يذهب إلى البحر، ويذهب زملاؤه السابقون إلى الكلية، وإلى وظائف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيدة. كانوا يتقابلون مصادفةً من وقت إلى آخر، حتى انعدمت هذه المقابلات وتلاشت الزمالة بينهم.

كانت البلاد في حالة جيدة على نحو مفاجئ، والجميع مشغولون ولديهم المزيد من المال وأماكن أخرى يوجدون فيها، ولكن الأمور لم تتغير بالنسبة إليه من الناحية المادية.

في بعض الأحيان، تأتي الحياة إليك، ولكنها ليست تلك التي خططت لها.

عندما شحت الأموال، فقدَ أصدقاؤه وظائفهم. قبل عامين، جعله «ماديجان» يعمل ثلاثة أيام في الأسبوع، لأنه لم يكن هناك ما يكفي من السياح حتى يدفعوا ثمن الوقود. الأسبوع الأقصر يعني القليل من المال، ولأن «فيستوس» كان يمتلك السيارة التي يقودها للعمل ويعيش مع والدته؛ فمن ثم لا يدفع الإيجار.

ولكن، عندما أصبح عدد أيام العمل يومين، قلب ذلك الموازين. صار لديه وقت فراغ كبير.

كان التلفزيون مهملًا، هناك خبر عن صيادين عثروا على شيء غريب في أعماق البحار. قال أحد المراسلين إنهم لم يروا تيارات كهذه من قبل، ولم يتمكنوا من وصف ما رأوه، لكن كان هناك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء خطأ في المحيط.

تحولت الكاميرا إلى صياد بجانب قاربه:

- الحقيقة هي أنني لا أريد الذَهاب إلى هناك، ولو كان السمك كله هناك، ولكنه ليس هناك ولا أنا، أنا لا أثق بهذه المياه.

جلس «فيستوس» و«ماديجان» على المنضدة، وقال «ماديجان»:

- كان والد «فيستوس» رجلًا جيدًا، وكان يعمل بجدٍ وهادئ.

طلب بجولة أخرى من الشراب قبل أن يبدأ بتصفح إحدى الصحف لقراءة الأخبار، بينما ظل «فيستوس» يحدق إلى شرابه، وكأن شيئًا به. في جميع السنوات التي قضاها في هذا عمله، لم يسبق أن دعاه «ماديجان» لتناول الشراب، فهو يفضِّل الشرب بمفرده. نظف الساقي حافة الكوب قبل صب الشراب.

كانت ألسنة النيران في الغرفة هي مصدر الصوت الأعلى. سعل «ماديجان» وأنزل الصحيفة حتى ظهر نصف رأسه. شعره الأبيض يشكل نصف هالة حول رأسه الوردي، قال:

- بالمناسبة، عليَّ أن أسرِّحك يا «فيستوس»، أنا آسف ولكن لم يعد هناك ما تعمله هنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعتقد «فيستوس» أنها مجرد نكتة صباحية، ولكن لم يضحك أحد، والرجل الذي كان ينظِّف الكأس وضعها بجانب الكؤوس الأخرى وأصدرت صوتًا «كليك».

أرجح «ماديجان» فأسه، ووقعت رأسه في السلة، ولكنها عادت مرة أخرى لفترة وجيزة على كتفه، وتحدَّث الرأس:

- لكنني عملت هنا طوال حياتي.

- أنا آسف. هذا كل شيء الآن.

- أنت تعرف والدي.

- أنا آسف للغاية.

غطت الصحيفة وجه «ماديجان» مرة أخرى. التقط الرجل كأسًا أخرى ورفعها أمام الضوء ليتأكد من نظافتها.

أخذ «فيستوس» الويسكي وشربه مرة واحدة وعاد إلى المنزل، مترنحًا لتجنب الحفر التي صنعتها ظلال السحب على الطرق الخاوية.

عندما ظهر الجبل أمامه على الزجاج الأمامي الخاص به، رفض النظر إليه. أدى العمل الذي كان يؤديه مرات لا تحصى، كل تطور وتحول في رحلة مألوفة، وكل شيء من أجل لا شيء، كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك للمرة الأخيرة. أوقف سيارته الـ«فيات» الصفراء خارج منزله في البلدة، ومشى إلى بار الفندق وجلس إلى الطاولة القريبة من النار. جمع أفكاره معًا لتناسب «ذعره الصغير»، أحضرت له النادلة مشروبه. أخذه منها ووضع المال في يدها.

نظر من النافذة إلى الشارع، وأنهى كأسه وحصل على أخرى، وشرب نخب حرِّية لم يكن يريدها. الطعم الحامض الغني لم يزل من لسانه طعم خسارته.

كان بإمكان «ماديجان» أن يدعه يعمل يومًا واحدًا في الأسبوع، على الأقل كان سيعود إلى العمل مرة أخرى عند عودة السيَّاح. على الأقل كان سيحتفظ بشيءٍ ما. حتى لو لم يملك المال.

يجب القيام بشيء ما.

رفع «فيستوس» الكأس إلى شفتيه ولم يعرف ما يجب القيام به، لكن على شخص ما فعل شيء ما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل شيء حتمي في هذا البلد

ترجمة: ريم عبدالرحمن

عن المؤلف:

«كولوم ماكان»

وُلد "كولوم ماكان" ونشأ في مدينة دبلن. صدرت له سبع روايات وثلاث مجموعات قصصية. حصل على العديد من الجوائز العالمية منها: جائزة الكتاب الوطني، وجائزة دبلن الدولية IMPAC، وجائزة فارس الفنون والآداب من الحكومة الفرنسية، وانتخاب الأكاديمية الأيرلندية للكُتَّاب والفنانين، وجائزة أفضل رواية أجنبية لعام 2010 في الصين، بالإضافة إلى ترشيح أوسكار. تُرجمت أعماله إلى أكثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أربعين لغة. هو أحد مؤسسي منظمة تبادل القصص العالمية غير الهادفة للربح: "Narrative 4". كما أنه مدرس في برنامجMFA في جامعة "هانتر كوليدج" الأمريكية. رُشحت أحدث رواياته "Apeirogon" للقائمة الطويلة لجائزة البوكر لعام 2020.

جاء فيضان صيفي وعلقت فرستنا في النهر. ارتطم النهر بالأحجار، وبدا صوت الارتطام مثل دوران الأقفال. إنه موسم العلف، لذلك رائحة المياة كالعشب. ربما نزلت الفرسة - وهي فرسة أبي المفضلة - إلى النهر لتستنشق الهواء فتعثرت ولم تستطع الحركة، لأن أرجلها الأمامية علقت بين الصخور. عثر أبي عليها، ونادى فوق صوت هطول الأمطار:

- "كاتي»!

كنت في الإسطبل أنتظر سقوط قطرات المياه على لساني من فتحة السقف. ركضت خارج المزرعة إلى الحقل. عند النهر، كانت الفرسة تحدق بشدة في أثناء نزول المطر، ربما تذكرتني. كان أبي يتحرك ببطء، خائفًا، مثل شخص يسافر بعيدًا في الثلج، إلا أنه ليس هناك ثلج، فقط الفيضان. كان أبي خائفًا من المياه، فهو دائمًا خائف. قال أبي:

- هناك على الصخرة يا فتاة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعطاني أبي حبلًا طويلًا، ومشبك سرج الحصان. أنا أعرف ما يجب عليَّ فعله. لقد أصبحت أطول من أبي منذ عيد مولدي السابق، الخامس عشر. مددت ساقي، ووضعت إحدى قدمي على صخرة في منتصف النهر، ثم وضعت إحدى يدي على فرع شجر فوقه، وتأرجحت فوق الفيضان.

قال أبي وهو يقف خلفي:

- بحذر الآن!

جرت المياه بسرعة، فتمسكت بفرع الشجر. ما زلت قادرة على الانحناء فوق الصخرة ووضع الحبل على رسن الفرسة الجميلة.

انحنت الأشجار على النهر تهمس له، وفرشن ظلالهن الطويلة على المياه. ارتعشت الفرسة بسرعة وفجأة. ظننتها ميتة، فسحبت الحبل إلى أعلى لأبقي رقبتها فوق المياه.

كان أبي يصيح:

- أمسكي الحبل يا فتاة!

أستطيع رؤية أسنانه وهو يجز عليها، وعينيه المتسعتين، وكل العروق المنتفخة في رقبته. هكذا يبدو عندما يمشي بجانب قنوات المياه بمزرعتنا، فهناك العديد من البقر، والسياج، والأسوار. يشعر أبي دائمًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالذعر على خسارة أمي و«فيا كرا»، والآن فرسته - الفرسة المفضلة لديه - فرسة بلجيكية كبيرة. تحرث الحقل منذ زمن طويل.

انقسم النهر عند الصخرة وأخذ الماء يتناثر سريعًا مثل بخاخات المياه ويصعد فوق قدمي ثم يدخل إلى فستاني، ولكنني أمسكت بالحبل جيدًا. أمسكت به مثلما يمسك أبي بسيجارته الأخيرة ماركة «سويت أفتون» وقت الأكل، قبل الصلاة. كان أبي يصيح قائلًا:

- أبقيها هناك يا فتاة! جيد.

كان أبي ينظر إلى الماء كأن أمي هناك، كأن «فيا كرا» هناك. أخذ نفسًا عميقًا، ونزل إلى الماء ليحرر خطاف الفرسة، لكنه غاب كثيرًا مما جعلني أشكو إلى السماء وحدتي. تمسك جيدًا بأحد جذوع الشجرة، بينما بقية جسدة تحت مياه النهر السريعة ذات اللون البني.

بدأت النجوم تظهر في السماء، ظهرت عاليًا بين الفروع. كان النهر يرش مياهه عليها.

ظهر أبي متلهفًا لنسمة هواء، وعيناه شاخصتان ودون طاقيته التي سقطت في النهر. اهتز الحبل في يدي ولسعني مثل عيون البوتاجاز. وهو يصيح:

- أمسكيه يا فتاة! أمسكيه محبة في الله! أرجوكِ، أمسكيه!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نزل أبي إلى النهر مجددًا، ولكنه صعد مبكرًا هذه المرة، لم يكن هناك ما يكفي من الهواء في رئتيه ليصمد طويلًا. بقي في النهر ممسكًا بجذع الشجرة والمياه ترتطم بكتفيه، يشاهد الفرسة وهي تغرق في حزن، فشددت حبل الرسن بقوة مجددًا، فصهلت الفرسة بقوة ورفعت رأسها.

قال أبي في صوت حزين يشبه صوته عندما وقف عند نعش أمي و»فياكرا» منذ زمن:

- محاولة أخرى.

نزل أبي تحت الماء وبقي فترة طويلة، ثم ظهرت بعض أنوار السيارات الأمامية تمسح طريق المدينة. شكلت الأنوار لوحة للمطر عاليًا وظلالًا على السياج وقنوات المياه. خرج رأس أبي من المياه، وهو يتنفس بصعوبة، لذلك لم يلحظ الأنوار. كان صدره يصعد إلى أعلى ثم إلى أسفل محاولاً التنفس. نظر أبي إلى الفرسة ثم إليَّ. شاورت على الطريق، فاستدار ونظر. ابتسم أبي، ربما اعتقد أنه «ماك ديفلين» هو من أتى بعربة اللبن، أو «مولي» عائدة إلى البيت من محل الحلوى، أو شخص جاء ليساعده على إنقاذ فرسته المفضلة. سحب جذع الشجرة وخرج من النهر، ووقف على الضفة رافعًا ذراعيه في الهواء يلوح بهما، صائحًا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هنا، هنا!

كان قميص أبي مبللًا تحت «الأوفرول»، كما بدا ناصع البياض حين انعكست عليه أنوار المصابيح الأمامية. اقتربت الأنوار أكثر، وفي سطوع الضوء، سمعنا صيحات، ثم أصبحت الأصوات واضحة. بدت أصواتهم كأنهم ابتلعوا أشياءَ لم أبتلع مثلها من قبل.

نظرت إلى أبي، ثم نظر هو إليَّ فجأة بوجه شديد الغرابة، كأنه ضائع، أو ملكوَم، كأنه مثل عوامة طائفة على النهر، أو مثل شجرة وحيدة متلهفة على غابة. قالوا صائحين بطريقتهم الغريبة:

- يا رفيق! ماذا يحدث؟

قال أبي:

- لا شيء.

ثم خفض رأسه بشدة على صدره، ونظر إليَّ عبر النهر. أعتقد أن ما قاله لي هو:

- اتركي الحبل يا فتاة!

ولكنني لم أفعل، بل أمسكته بقبضة محكمة، وحافظت على رقبة الفرسة فوق المياه. طوال الوقت، يقول أبي ولا يقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اتركيه أرجوكِ يا «كاتي»! اتركيها تغرق.

جاؤوا بسرعة عبر السياج غير مبالين لزيهم، يمكنني سماع الأشواك وهي تمزق ستراتهم. أحدهم خلع خوذته وهو يركض ولون شعره مثل ثلج الشتاء. وآخر له شارب يبدو مثل الحشائش الطويلة، وآخر لديه ندبة على خده تشبه الجزء السفلي من سكين قش أبي في الإسطبل.

كان «هاي نايف» (الرجل الذي لديه ندبة تشبه سكين القش) أوَّل من وصل إلى حافة النهر، وارتطمت بندقيته بفخذه حين قفز إلى الصخرة التي أمسك الرسن عندها. قال لي ويده المبللة من ماء المطر تربط على ظهري:

- حسنًا عزيزتي، أنت بخير الآن.

أخذ الرسن، وصاح ببعض الأوامر للجنود الآخرين، مثل ماذا يفعلون، وأين يقفون. ظل ممسكًا بالرسن، وسلمني إلى «لونج جراسيز» (الرجل ذي الشارب الطويل) الذي أخذ يدي، وأوصلني بأمان إلى ضفة النهر. هناك ستة منهم الآن، حاملين بنادق، ومرتدين خوذات. لم يتحرك أبي. كانت عيناه تنظران بثبات إلى النهر، ربما يرى أمي و»فياكرا» ينظران إليه أيضًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان أحد الجنود يوجه له الكلام بصوت عالٍ وبسرعة، لكن أبي كان متسمراً مثل دمية الشباك بمتجر «ديري»، فنفض الجندي ذراعيه، وأشاح بوجهه في الأمطار، وبصق بصقة كبيرة في الهواء.

كان «هاي نايف» يقف بمنتهى التوازن على الصخرة وهو يمسك الرسن، ولم يتمسك بفرع الشجر فوق رأسه. كان «أيس هير» (الرجل ذو الشعر الأبيض) يخلع حذاءه، وبندقيته، وقميصه. هو لا يشبه صبيان المدينة الذين يأتون إلى الإسطبل لفعل الحب، ولا يشبه أبي عندما يقطع القش وهو لا يرتدي قميصه، لا، هو لا يشبه أحد، هو نحيف جدًّا، وقوي، كما أن له ضلوعًا تشبه ضلوع الحصان بعد يوم عمل شاق في الحقل. لم يغطس بالطريقة التي كنت أحب، نزل الماء ببطء، ولكن ليس متباهيًا، وبدأ يشق طريقه. ذراعاه عاليتان في الهواء، ثم بدأ ينزل إلى أسفل. ولكن، أصبح النهر عميقًا جدًّا، فأخذ «هاي نايف» يصيح من على الصخرة قائلًا:

- ابق مرتفعًا يا «ستيف»! ابقَ على جانب مرتفع يا رفيق!

رفع «ستيف» إبهامه لـ«هاي نايف»، ثم نزل تحت الماء، وكان آخر شيء هو ركلة القدم.

وقف «لونج جراسيز» بجانبي، ووضع سترة «ستيف» على كتفي لتدفئني، ولكن سرعان ما جاء أبي ودفع «لونج جراسيز» بعيدًا. دفعه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبي بعنف. يصغر أبي «لونج جراسيز» في الحجم، لكن «لونج جراسيز» انزلق على جذع الشجرة، وارتطم بها. أخذ «لونج جراسيز» نفسًا عميقًا، وحملق في أبي. قال أبي:

- اتركها وشأنها ألا ترى أنها مجرد طفلة؟

غطيت وجهي من الخجل مثلما كنت أفعل في المدرسة عندما كانوا يجلسوني على مقعد أكبر من مقاعد زملائي، ليس كتلك المقاعد الخشبية ذات الأغطية التي تُرفع، ما عدا أنني لم أعد أذهب إلى المدرسة مجددًا منذ ما حدث لأمي و»فياكرا». شعرت بالإحساس نفسه بالخجل الذي شعرت به في ذلك اليوم بالمدرسة، فغطيت وجهي واختلست النظر من الفتحات بين أصابعي.

نظر أبي بامتعاض إلى «لونج جراسيز». نظر «لونج جراسيز» إلى أبي أيضًا، مطولًا، ثم هز رأسه وذهب إلى ضفة النهر حيث لا يزال «ستيف» تحت الماء.

كان أبي يضع يده على كتفي ليدفئني وقال:

- سيصبح كل شيء بخير الآن يا حبيبتي.

ولكني كنت أفكر في «ستيف» وكم من الوقت بقي تحت الماء. صاح «هاي نايف» بعلو صوته وهو ينظر إلى الماء، ثم نظر إلى أعلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورأى عربة الجيش الكبيرة قادمة عبر السياج، وفُتح السياج بفتحة كبيرة، فصرخ أبي:

- لا!

أنوار السيارة القوية أضاءت النهر بأكمله. وصرخ أبي مجددًا:

- لا!

ولكنه توقف عندما نظر إليه أحد الجنود وقال:

- إما حصانك وإما زميلك!

جلس أبي على ضفة النهر وقال:

- اجلسي يا «كاتي»!

شعرت في صوته بحزن أكبر مما شعرت به في صوته عندما وقف على نعش أمي و»فياكرا»، حزن أكبر من اليوم الذي عقب اصطدامهم بسيارة جيش بالقرب من وادي «جلين»، حزن أكبر من اليوم الذي قال فيه القاضي:

- لا أحد مذنب، إنها حادثة.

حزن أكبر من ذلك اليوم وجميع الأيام التي تلته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال أبي بهمس:

- أوغاد!

- أوغاد!

قالها أبي وأحاطني بذراعه وجلس يشاهد حتى ظهر «ستيف» من الماء يسبح عكس التيار ليبقى في مكان واحد. صاح «ستيف» لـ«هاي نايف»:

- ساقها عالقة.

ثم أضاف:

- سأحاول أن أخرج الحافر.

أخذ «ستيف» نفسًا عميقًا أربع مرات، وشدَّ «هاي نايف» حبل الرسن، فصرخت الفرسة بطريقة لم أسمع حصانًا يصرخ مثلها من قبل أو بعد. كان أبي هادئًا، وأردت أنا أن أعود إلى الإسطبل وأنتظر وحدي سقوط القطرات على لساني. كنت أرتدي سترة «ستيف»، ولكنني كنت أرتعش، ومبللة، وأشعر بالبرد، وخائفة لأن «ستيف» والفرسة سيموتان، لأن كل شيء حتمي في هذا البلد.

يفضل أبي الشاي المغلي مثل الذي كانت تصنعه أمي وليس شاي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأكياس، لذلك هناك طريقة معينة أصنعه بها؛ أضع مياهًا باردة جدًّا في غلاية المياه، فقط المياه الباردة، أتركها تغلي ثم أصب مقدارًا صغيرًا من الماء المغلي في إبريق الشاي، وأحركه حتى يصبح قاع الإبريق دافئًا. ثم أضع أوراق الشاي، ليس الأكياس، ومن ثم الماء المغلي، وأقلبها ببطء؛ ثم أغطي الإبريق بالغطاء الصوف، وأتركه يتخمر في الفرن خمس دقائق، وأتأكد من أن النار غير حامية حتى لا يحترق غطاء الإبريق. ثم أصب الحليب في الأكواب، ومن ثم الشاي، ويليه السكر، وأقلبها جميعًا في خليط متجانس.

جعل صوت الضجيج الذي يصاحب تحضيري للشاي الجنود يبتسمون، حتى «ستيف» الذي كان يتدفق من رأسه الدم من حيث ركلته الفرسة فوق عينه.

أصبح وجه أبي شاحبًا عندما ابتسم «ستيف»، ولكن «ستيف» كان مهذبًا جدًّا. لقد أخذ منشفة مني لأنه لا يريد أن يلوث الكرسي بالدماء. ابتسم لي مرتين عندما ظهر رأسي عند باب المطبخ، ورفع إصبعًا واحدًا إشارة إلى ملعقة سكر واحدة، وشكَّل دائرة بأصابعه إشارة إلى أنه لا يريد حليبًا على الشاي. بدأت الدماء تجف على شعره، وكانت عيناه لامعتين كما ينبغي أن تكون السماء. شعرت بضربات قلبي تسري في جسدي، وابتسم لي للمرة الثالثة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعر الجميع بالارتياح لإنقاذ روح، حتى لو كانت روح حصان. جلس أبي في صمت في الزاوية. غضب مني لأنني سألت الجنود إذا كانوا يريدون احتساء الشاي. كان ذقنه طويلًا يصل إلى صدره، وهناك بركة ماء صغيرة عند قدميه. فقد جفف الجميع أنفسهم بمناشف ما عدا أبي، لأنه لم يكن هناك مناشف كافية.

جلس «لونج جراسيز» على كرسي ذي ذراعين وقال:

- من حسن الحظ أن لديك مصابيح حرارية يا ريس.

أومأ أبي برأسه فقط.

سأل «لونج جراسيز»:

- كيف كان الوضع تحت الماء يا «ستيف»؟

قال «ستيف»:

- مبلل!

وضحك الجميع عدا أبي الذي نظر إليه ثم أشاح بنظره بعيدًا. صارت غرفة المعيشة ساطعة الآن. أعجبني لون زيهم الأخضر حتى لون دماء «ستيف» الأحمر. لا بدَّ أن رأس «ستيف» يؤلمه إثر ركلة الفرسة. تحدث الجنود الآخرون عن إمكانية نقل «ستيف» بسيارة الجيش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مباشرة إلى المستشفى قبل أن يجف، وأن يخيط الجرح عوضًا عن احتساء الشاي، وأنهم سيأتون في وقت لاحق للاطمئنان على الفرسة إذا تعافت تحت حرارة المصابيح الحرارية. ولكن، قال «ستيف»:

- أنا بخير يا شباب، إنه مجرد خدش. يمكن أن أفعل أي شيء من أجل كوب من الشاي.

كان مذاق الشاي جيدًا بسبب طول فترة تخمره، لدينا أيضًا بسكويت للضيوف المميزين، أحضرته لهم من دولاب الخزين. تذوقت واحدة لأتأكد من أنه طازج، ثم حملت الصينية إلى الخارج.

كنت أعطس ولكنني كنت حذرة ألا أعطس في اتجاه الصينية لأبدو مهذبة مثل «ستيف». قال «ستيف» بطريقته المضحكة:

- بارك الله فيك.

كنا كلنا هادئين ونحن نحتسي الشاي، ولكنني عطست مجددًا ثلاث، أو أربع، أو خمس مرات، فقال «هاي نايف»:

- يجب أن تبدلي تلك الملابس المبللة يا عزيزتي.

وضع أبي كوب الشاي بقوة على صحن الكوب، بينما كان الجو هادئًا جدًا.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر الجميع حتى الجنود إلى الأرض. كانت ساعة رف المدفأة تصدر صوت دقدقة، وتنظر صورة أمي المعلقة على الحائط إلى أسفل، وأيضًا صورة «فيا كرا» عندما كان يلعب كرة القدم ولم يره الجنود ولكن أبي رآه. كان الصمت يزداد بشدة حتى ناداني أبي:

- تعالي يا « كاتي»!

أوقفني أبي عند الشباك، وضم الستارة الطويلة في يده. جعلني أستدير، ولف الستارة حولي، وبدأ يجفف شعري، ليس بلطف بل بعنف. أبي شخص جيد، هو فقط يريد أن يجفف شعري لأنني كنت أرتعش حتى وأنا أرتدي سترة «ستيف». أستطيع أن أرى الجنود من تحت الستارة وبالذات «ستيف». رشف «ستيف» من شايه وابتسم لي، فسعل أبي بصوت عالٍ جدًّا، ودقت الساعة أكثر حتى قال «هاي نايف»:

- يا ريس! لِمَ لا تستخدم منشفتي لتجففها؟

قال أبي:

- لا، شكرًا.

قال «هاي نايف»:

- هيَّا يا ريس!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم طوى «هاي نايف» المنشفة على شكل كرة، وكان على وشك أن يقذفها لأبي. لكن أبي قال:

- لا!

قال «ستيف»:

- خذها ببساطة!

قال «هاي نايف»:

- خذها ببساطة؟

قال أبي:

- ربما عليكم أن تغادروا جميعًا.

تغير وجه «هاي نايف»، وألقى بالمنشفة على الأرض عند قدمي أبي، وانتفخت وجنتيه، وبدأ يتنفس بصعوبة، وقال:

- نحن نحصل على الكثير من الشكر من أمثالك يا سيد.

وقف «هاي نايف» على قدميه الآن مشيرًا إلى أبي، وكان وجهه يرتعش حتى بدت الندبة كأنها تقطع وجهه. وقف «لونج جراسيز» و«ستيف» يكبحان «هاي نايف»، لكن «هاي نايف» كان يقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نحن خاطرنا بحياتنا لننقذ فرستك، وهذا هو الشكر الذي نحصل عليه منك؟

أمسكني أبي بإحكام والستارة ملفوفة حولي. بدا خائفًا، وصغيرًا، ومرتعشًا. كان «هاي نايف» يصيح ووجهه أحمر. أبقاه «ستيف» بعيدًا. كان وجه «ستيف» حزينًا. أنا أعرف أنه يعرف، لأنه كان ينظر إلى أمي و«فيا كرا» على رف الموقد بجانب الساعة التي تتكتك. سحب «ستيف» «هاي نايف» خارج غرفة المعيشة، وتركه عند باب المطبخ. استدار «هاي نايف» مرة أخيرة، ونظر إلى أبي ووجهه ملتوٍ، ولكن «ستيف» أمسك به مرة أخرى، وقال:

- انسَ الأمر يا رفيق!

أخذ «ستيف» «هاي نايف» إلى الخارج عبر المطبخ، ثم إلى الفناء باتجاه سيارة الجيش. ما زالت الأمطار تهبط في الخارج. وأصبحت غرفة المعيشة هادئة عدا الساعة.

سمعت صوت موتور سيارة الجيش يعمل.

وقف أبي بعيدًا عني، ووضع رأسه على رف المدفأة بالقرب من الصور. بقيت عند الشباك، ما زلت أرتدي سترة «ستيف» التي نسيها ولم يعد ليأخذها بعد.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شاهدت السيارة وهي تبتعد على الطريق، وانعكاس الضوء الأحمر على البوابة الخضراء حين توقفت لتتوجه إلى الطريق الذي رُفع فيه الفرسة من النهر. لم أسمع أي شيء حينها حتى بدأ أبي في البكاء بصوت منخفض، ولكنني لم ألتفت من النافذة لأنني أعرف أنه سيغضب إذا رأيته. كان أبي ينتحب، ربما نسي أنني ما زلت هناك.

Telegram:@mbooks90

كان يكتم البكاء، ثم ظهر في أصوات شديدة لم أسمع مثلها من قبل. بقيت ثابتة في مكاني لكن أبي كان يرتجف بقوة. أخرج منديلًا وتحرك من جانب رف المدفأة. لم أشاهده لأنني أعرف أنه سيشعر بالخجل لأنه يبكي.

كانت سيارة الجيش ما زالت قريبة، فهناك أضواء حمراء على السياج.

سمعت صوت غلق باب غرفة المعيشة، ثم باب المطبخ، ثم باب الخزانة التي يضع فيها أبي بندقية الصيد، ثم الباب الأمامي، ثم سمعت صوت طقطقة البندقية، وصوت أبي ما زال يبكي وهو يذهب بعيدًا أكثر فأكثر حتى اختفى صوت البكاء، لا بدَّ أنه ما زال في الفناء يقف تحت المطر.

بدا صوت الساعة فوق رف المدفأة عاليًا جدًّا، وكذلك صوت المطر، وصوت أنفاسي أيضًا، فنظرت من الشباك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الطريق الخارجي شبه فارغ والجنود ذهبوا ناحية الزاوية عندما سمعت أصواتًا، لم تكن مثل صوت الرصاص، بل مثل صوت فرقعة، واحد، اثنان، ثلاثة.

ما زالت الساعة تتكتك.

تتكتك وتتكتك وتتكتك.

كانت الستارة مبللة، لكني لففتها جيدًا حولي. كنت خائفة، لم أستطع الحركة. انتظرت، وبدا الانتظار لا نهائيًا.

عندما عاد أبي من الخارج علمت ماذا حدث. بدا وجهه كأنه جرح بحجر، لم يعد يبكي، ولم ينظر إليَّ حتى، ذهب وجلس على الكرسي فحسب. هم بأخذ كوب الشاي، ولكنه اهتز على طبق الكوب، فوضعه مكانه مجددًا، ووضع وجهه في كفيه وبقي هكذا. ذهبت التكتكة من عقلي، وبدا كل شيء هادئًا في العالم. أمسكت الستارة بقوة مثلما كبحت صوت الرصاص يخترق الفرسة، فرسته المفضلة، في الإسطبل، واحد، اثنان، ثلاثة. وقفت عند النافذة مرتدية سترة «ستيف». نظرت وانتظرت، وما زالت الأمطار تهبط في الخارج، واحد، اثنان، ثلاثة. وكنت أفكر في أن السماء صغيرة لكثرة الأمطار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أغنية أختي

ترجمة: يمنى خالد

عن المؤلفة:

«لوسي كالدويل»

وُلدت «لوسي كالدويل» في «بلفاست» في أيرلندا عام ١٩٨١. كتبت ثلاث روايات، والعديد من المسرحيات، والمسلسلات الإذاعية. كما أَلَّفت مجموعتين من القصص القصيرة بما فيها مجموعة «التعدد»، فقد نُشرت بها لأول مرة قصة «الألي، الألي، أوه» - أغنية أختي - ومجموعة «الحميمية» التي ستصدر عن دار «فابر وفابر» في عام ٢٠٢١. تعمل «لوسي كالدويل» محررة لكتاب «أن تكون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متنوعًا: قصص قصيرة أيرلندية جديدة» الصادرة عن دار «فابر وفابر» عام ٢٠١٩. حصلت على جائزة «روني» للأدب الأيرلندي، وجائزة «ديلان توماس»، وجائزة «جورج ديفاين» لأكثر كاتب مسرحي واعد. فازت أيضًا بجائزة «كشف الخيال» وجائزة الفنان الفردي الرئيسة من مجلس فنون أيرلندا الشمالية. أُختيرت في عام ٢٠١٩ زميلة للجمعية الملكية للأدب.

تغني أختي:

- تبحر السفينة الكبيرة في «الألي ألي أوه، الألي ألي أوه». تبحر السفينة الكبيرة في «الألي الألي أوه». في آخر يوم من سبتمبر.

ثم يعلو صوتها حين تغني الجزء الأساسي من الأغنية:

- الألي ألي أوه، الألي ألي أووووه.

تجتاحك رغبة عارمة في أن تصرخ بها لتصمت. تضع إبهامك على أذنك اليمنى وتميل بجبهتك نحو زجاج السيارة حتى تستطيع التركيز. تظن أنك في الطريق نحو «حلقة الثلج»، ولكن لا يمكنك التأكد. تلامس حبات المطر المتساقطة زجاج السيارة، مما يجعل قراءة أسماء لافتات الشوارع أمرًا مستحيلًا. وعلاوة على ذلك، يبدو كل شيء مختلفًا وأنت بداخل اللعبة الآن. تظهر الأماكن المألوفة في أوقات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غير متوقعة كما لو أن المسافات اختلط عليها الأمر بطريقة ما، أو لا تظهر على الإطلاق لأنك سلكت الطريق الخطأ أو دخلته مبكرًا.

كنت تحب لعبة «التوهان» عندما تقترحها أمك وتشعرين بالحماسة أنتِ وأختكِ الوسطى التي كانت في وقتها أصغر أخت لكِ. انتهى بكما الأمر ذات مرة في متنزه «مرح بيكي» ودُرتما حول البحيرة في بجعة بلاستيكية كبيرة. وفي مرة أخرى، كان هناك احتفال متنزه «السيدة ديكسون» وامتلأت الأجواء ببالونات الهيليوم ورسم الوجوه. رسمتِ على وجهكِ شكل نمر، واختارت أختكِ شكل فراشة. ما زلت تتذكرين ملمس الألوان الدافئة على وجهكِ.

تدركين الآن أنه لا بدَّ وأن أمكِ قد خططت كل هذا ووجهت اختياراتكِ. لا تظن أن لديها خطة لليوم. فكيف لها أن تكون خططت لشيء في وسط أعمال الكوي لملاءات كبيرة لم تجف بعد، وطبخ وجبة لحم لم تنتهِ من طهيها بعد على الموقد، وصوت الراديو يدندن في خلفية هذا المشهد الذي اختتمته قائلة:

- أحتاج إلى أن أخرج من هنا.

كان ثلاثتكن يركضن حول طاولة غرفة الطعام، ومن المشتل الزجاجي وإليه، ثم عدتن وتوقفتن ونظرتن.

تغني أختك الصغرى بنشاط متزايد مع كل دقيقة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يقول القبطان إنها لن تجدي نفعًا أبدًا، لن تجدي نفعًا أبدًا، لن تجدي نفعًا أبدًا.

تصرخين داخل رأسكِ:

- اخرسي، اخرسي!

تشعرين بالحرارة والرطوبة في جسمك كله؛ فبنطالك الضيق مصنوع من الصوف ويجعلكِ تشعرين بالحكة في سيقانك. تضغطين بجبهتك على النافذة.

لا بدَّ وأننا في الطريق إلى «حلقة الثلج». وربما نحن في الطريق إلى أرض «إنديانا» وجسورها المصنوعة من الحبال وحفرة الكرة والسقوط الحر. تشعرين للحظة بإحساس الجلوس على الحافة، وبرجليكِ المتدليتين، وذراعيك المعقودتين فوق صدرك قبل أن يصرخ المرافق بأن تنطلقي.

ولكن قالت أمكِ إنها لن تصطحبك إلى هناك مرة أخرى بعد أن انتشرت الشائعات بأن هناك فأرًا في حفرة الكرة. كان يعيش الفأر على بقايا عصير «سلاش بابي» ورقائق البطاطس. كان فأرًا متوحشًا، ومتحولًا. كانت عائلة كاملة من الفئران. فقد عض طفلًا رضيعًا في منطقة الألعاب الصغيرة، وجرجره تحت الكور البلاستيكية وقضم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عينيه. وتحدث الجميع عن هذه الحادثة حتى الأمهات تحدثن عنها على أبواب المدرسة.

تكمل أختك الصغرى غناءها:

- يقول القبطان إنها لن تجدي نفعًا أبدًا في اليوم الأخير من سبتمبر. «ألي أوه، ألي أوه،ألي أوه".

ثم توقفت عن الغناء وسألت:

- ماذا تعني «ألي أوه»؟

تقول أمكِ:

- حسنًا، سأقول إن المقصود بها هو المحيط الأطلسي؛ «ألي» الأطلسي، و»أوه» المحيط. والمقصود بالسفينة الكبيرة هي سفينة «تيتانيك». تُرى أي طريق نسلك؟ اليسار بجوار أعمدة النور أم نسير في خط مستقيم؟

تقول أختكِ الوسطى:

- خط مستقيم.

ترد أمكِ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حسنًا.

ثم تزيد من سرعتها.

تقلد أختك الوسطى أباكِ وتقول:

- ادفع إلى الأمام، وانشغل بالطريق.

وتضحك أمكِ، وتكره أختك لأقل من الثانية.

تسمعين نفسك وأنتِ تقولين إنها ليست سفينة «تيتانيك»، فقد انطلقت من مدينة «بلفاست» في الثاني من أبريل ومن «ساوث هامبتون» في ظهيرة اليوم العاشر من الشهر نفسه. لا تستطيعين أن تمنعي نفسك من إضافة أنه ربما تكون السفينة المقصودة هي سفينة «إس إس أركتيك». غرقت سفينة «إس إس أركتيك» في نهاية سبتمبر. كانت السفينة الأسرع والأكثر شهرة في أيامها، ولكنها تصادمت مع الباخرة الفرنسية «فيستا» قبالة ساحل «نيو فاوندلاند» وقضى أغلب من كانوا على متنها نحبهم.

تلمحك أمكِ في المرآة الخلفية وتسألك:

- هل هذه المعلومات من الكتاب؟

تردين سريعًا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، من المدرسة.

يشتعل خداكِ حمرة من الكذب، ونثقين تمامًا بأنها يمكنها أن ترى حقيقتكِ. قدمت شركات النقل البحري وعودًا بأن تقوم بإصلاحات لتأمين السلامة ولكن تكمن مأساة «تيتانيك» في كونها سفينة لم يتوقع أحد احتمالية غرقها.

تنادي أختك الوسطى قائلة:

- أمي.

ترد أمك:

- آسفة، لا تشغلي بالك. انظري هناك مجموعة من أعمدة النور ستظهر أمامنا.

تقول أختك الصغرى:

- أريد أن أختار. كيف لا أختار أبدًا؟

فترد أمي:

- بل نُتاح لكِ الفرصة أن تختاري.

فترد أختك الصغرى:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، أبدًا.

فتقول أمكِ:

- بنات!

ثم تقول لأختك الصغرى:

- حسنًا، أنمشي في خط مستقيم أم نسلك اليمين؟

تتحرك أختك الصغرى في كرسي السيارة المدعم الخاص بها وتصفق بيديها من الفرحة وتقول:

- حسنًا، لا، أقصد خطًا مستقيمًا. لا، إلى اليمين.

فتقول أمكِ:

- متأكدة؟

فترد أختك الصغرى:

- نعم، لا.. نعم. لا تضحكين عليَّ. أمي، أخبريها ألا تضحك عليَّ.

فتردين قائلة:

- أنا لا أضحك عليكِ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فترد أختك الصغرى:

- لا بل تضحكين. أنتِ تضحكين داخل وجهك.

فتردين:

- داخل وجهي؟

فتقول أختك الصغرى:

- نعم.

فتتدخل أمكِ قائلة:

- بنات، أنا أحذركن.

فتردين:

- أنا لم أفعل شيئًا.

فترد أختك الصغرى:

- لا، بل فعلتِ.

فتقول أمكِ:

- إلى اليمين، سأتجه إلى اليمين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحرك أمكِ المؤشر وتغير الاتجاه إلى حارة اليمين. تسمع صوت أمكِ متفائلًا فجأة وهي تقول:

- أحتاج إلى أن أخرج من هنا. ارتدين أحذيتكن جميعًا. لقد طفح الكيل.

تشعرين بحكة الآن في كل جسمكِ. ثم تقولين:

- كان قائد سفينة «إس إس أركتيك» هو «جيمس لوس». سقط في المياه وهو واقف على سطح صندوق خشبي، ولكن من مفارقات القدر أن الصندوق صعد مرة أخرى إلى السطح وتمسك هو به حتى أُنقذ بعد يومين. ولكن من ناحية أخرى، فقد مات ابنه المريض «ويلي». غرق جميع الأطفال، والنساء أيضًا، الذين كانوا على متن السفينة وذلك لأن طاقم السفينة المفزوع أخذوا مراكب الإنقاذ لأنفسهم.

تقول أختكِ الوسطى:

- أنتِ ممنوعة من قراءة هذا الكتاب. أليس كذلك يا أمي؟

فتردين وصوتك مرتعش:

- أولًا، أنا ممنوعة من قراءته قبل النوم. ثانيًا، أنا لم أكن أقرأ ولكنني أُسمع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتنادي أختك الوسطى قائلة:

- أمي!

ترفعين عينيك لتنظرين في عيني أمكِ في المرآة. لا تستطيعين أن تفسري تعبير وجهها. كنتِ تعتقدين أنه كان لها حقًّا عينان في خلف رأسها، ولهذا كانت تعرف كل ما تخططينه أنتِ وأختك. كان الأمر محبطًا للغاية عندما عرفتِ السر وراء معرفتها بكل شيء.

تقول أمكِ:

- تعرفين كل هذا عن ظهر قلب.

لا تستطيعين معرفة ما إذا كان قولها سؤالًا أم تحذيرًا. فتردين قائلة:

- نعم.

تنتظرين أمكِ لتقول شيئًا ولكنها لا تفعل، أما عن أختك التي كانت تنظر إليكِ من بين المساحة الموجودة بين كراسي السيارة فتستدير بظهرها وقد خاب أملها.

اشتريت كتاب «كوارث العالم الأعظم!». اشتريته بقسائم شراء الكتب الرمزية التي حصلتِ عليها في عيد ميلادك وضحك عليكِ والديكِ في بادئ الأمر. يحتوي الكتاب على حادثة «تيتانيك»،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحادثة «إس إس أركتيك»، وحادثة «هيندنبورج» في السادس من مايو من عام ١٩٣٧. ويحتوي أيضًا على حادثة انفجار مفاعل شركة "ICMESA" في مدينة «ميدا» في إيطاليا» في العاشر من يوليو عام ١٩٧٦ والذي أدى إلى سحابة من «الديوكسين» في الجو: أحد أكثر الغازات السامة المعروفة للبشر. كما روى الكتاب أيضًا حادثة حريق ملهى «بستان جوز الهند» الليلي في الثامن والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٤٢. كان السبب في الحادثة نادلًا مراهقًا قرر أن يتغافل عن لمبة فكها زوجين أرادا أن يقبلا بعضهما في الظلام.

كتبتِ قائمة سرية على الصفحات الفارغة في آخر الكتاب للكوارث العالمية التي حدثت منذ أن نُشرت. لا يصل إلى هذه القائمة سوى الحوادث الأكثر كارثية حيث يموت الآلاف من البشر في وقت واحد، وحيث تُزال مدن كاملة مرة واحدة، وتُدمر مساحات واسعة من الأرض للأبد. تكتبين عن الأعاصير، والرياح الموسمية، والزلازل، والانهيارات الطينية، وعن عروض الطائرات التي تتحطم وسط الجماهير، والانفجارات التي تحدث في منصات الحفر في البحر الشمالي، وتسريبات الغازات السامة. وفي السادس والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٨٦، انهار المفاعل النووي الرابع في محطة «تشيرنوبل». رُصد الإشعاع فوق «أسكتلندا» في غضون ساعات. فقد كان يمكنك رؤية ساحل «أسكتلندا» من «كروفدزبرن» كما لو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنه لا توجد أية مسافة على الإطلاق. كانت أحدث إضافة لكِ هي حادثة تسرب «إكسون فالديز» النفطي في مضيق «الأمير ويليام» في الرابع والعشرين من مارس عام ١٩٨٩. تخبئين الكتاب في أسفل كرسي البيانو ولا تخرجينه إلا عندما تكونين في حاجة حقًّا إلى ذلك. إن فكرة وجود الكتاب تعطيك راحة في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان الأخرى تشعرين برغبة في أن يمنع والداكِ الكتاب كلية.

يضيق الطريق كلما استمررنا في صعود التلال. تشتد الأمطار بقوة الآن، وتضرب بغضب الناحية اليمنى من السيارة. تشعرين باهتزاز السيارة كما لو أنها ترتعش.

تقول أختكِ الصغرى:

- هل ضللنا الطريق بعد؟

ترد أمكِ:

- ربما.

تقولين لنفسك: «هذه مجرد لعبة، مجرد لعبة غبية. أنتِ الآن وسط الريف: السياج، والطين، والحقول. ترتفع تحولات ومنعطفات الطريق أكثر وأكثر".

تقول أمكِ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سنرى منظراً رائعًا للمدينة كلها في خلال دقيقة يا بنات.

تقول أختكِ الوسطى متهمة:

- كيف لكِ أن تعرفي؟ إذا كنتِ لا تعرفين مكاننا، فكيف لكِ أن تعرفي أين سنكون؟

تقول أمكِ:

- آسفة.

ولكنها تأسر عينيكِ بعينيها في المرآة الخلفية، وتعرفين أنها نظرة مقصودة.

تدخل السيارة في دوران وتبطئ أمكِ من سرعتها وتقول:

- ها نحن ذا.

ترفعين نظرك لتري المنظر من جهة سيارة أمك.

تقول أختكِ الصغرى:

- ما هي؟ أين؟

تقول أختكِ الوسطى:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أستطيع أن أرى بعض البقر الذي لا يزال عابسًا، وبعض الحقول، وبعض الأمطار. يا له من منظر باهر!

تقول أمك في أحد الأيام الجميلة:

- إن المنظر من هنا هو أروع منظر في العالم. يمكنك أن ترى في يوم مشرق المدينة كلها، ورافعات «سامسون وجولياث» المطلة على المواني، وجزيرة «كوين»، والطريق كله المطل على ساحل البحيرة إلى تل الكهف، و«ديفيس»، والجبل الأسود، جميعها. إن المنظر يوحي لك كما لو أن باستطاعتك حمل المدينة كلها في كفيك.

تمتم أختكِ قائلة:

- ظننت أنك قلت إنكِ لا تعرفين أين نحن.

تقول أمكِ:

- لم أكن أعرف حتى وصلنا إلى هنا.

تقول أختكِ الصغرى:

- الجبل الأسود؟ هل ذهبت إلى هناك من قبل؟

تقول أمكِ:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لا، لم تذهبي إلى هناك من قبل.

فترد أختك الصغرى:

- ولم لا؟

فتقول أمكِ:

- حسنًا، أنا لا أعرف الطريق حول هذا الجزء من المدينة.

فتقول أختك:

- ولكن أيمكن أن نذهب إلى هناك يومًا ما؟

فتقول أمكِ:

- يومًا ما.

للحظة، لا تسمع سوى صوت مؤشر السيارة ومساحات الزجاج الأمامي للسيارة المتحركة ذهابًا وإيابًا. لا تعلم أختك بعد أن يومًا ما تعني «لن يحدث أبدًا». لا تعلم أن هناك أماكن لا تذهب إليها أبدًا، ولا يحدث هذا عن قصد أو حتى عن طريق الخطأ. لا يتطلب الأمر سوى تغيير معين في الطريق أو في الكلمة المنطوقة.

تقول أمكِ فجأة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- قادني أبوكن بالسيارة إلى هنا في وقت الغروب في بداية مجيئي إلى هنا. وهذا عندما ظننت أنه بالفعل يمكنني أن أعيش هنا على أية حال.

فتقولين أنتِ:

- تقولين لنا دائمًا أن نكبر ونذهب بعيدًا.

فتقول أمكِ:

- حقًّا؟ لا، لا أقول هذا.

فتردين أنتِ:

- بلى، تقولين.

وتتدخل أختك الوسطى وتقول:

- بل تقولين هذا.

فترد أمكِ:

- حسنًا، أعتقد أنني أقول هذا في بعض الأحيان. ربما يقول كل الآباء هذا، وعلى أغلب الأحوال لا نقصدها بالمعنى الحرفي. نقصد فقط أن نشجعكن على جعل العالم مكانًا أفضل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجلس للحظة، ثم تهز رأسها وتنتهد. تتفقد المرآة وتطفئ مؤشر السيارة للانتظار، وتبدأ في القيادة مجددًا.

تقول أختك الصغرى:

- سنعود إلى المنزل الآن؟

تنظر أمكِ إلى الساعة في لوحة القيادة والتي تشير إلى الساعة الرابعة وسبع عشرة دقيقة. ثم تقول:

- لا أعرف. أتظنين أنه يمكننا أن نعرف طريق العودة؟

تضرب أختكِ الصغرى بقدميها في مقعد السيارة وهي سعيدة. وتغني بصوت عالٍ مزعج:

- ألي ألي أوه!

تقول أختك الوسطى:

- لا، ليست هذه الأغنية مرة أخرى! إنها مثل التسجيل المعطل، أليس كذلك يا أمي؟

تقول أختك الصغرى:

- نعم، أنا لست كذلك. قولي لها يا أمي أن تعتذر لي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقول أمك:

- إنها لم تقصد أي شيء. هل أخبرتك من قبل أننا اعتدنا أن نغني هذه الأغنية عندما كنت طفلة صغيرة؟

تقول أختك الصغرى وقد نسيت أنها أُهينت:

- حقًّا؟

تقول أمك:

- ظننت دائمًا أن السفينة المقصودة في الأغنية هي سفينة «تيتانيك». ولكن صُحتِ المعلومة.

تقول أختك الصغرى:

- أكنتِ تغنيها حقًّا؟

فترد أمكِ:

- كنا نلعب لعبة ونحن نغنيها. نمسك بأيدي بعضنا بعضًا وندخل ونخرج من تحت ذراعينا، ثم نقع جميعًا في مجموعة كبيرة. لم أفكر في الأمر منذ سنوات. اعتدنا أن نلعبها في شارعنا، اثنى عشر واحدًا يلعبونها.

Page 125 / 177

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تسأل أختك الوسطى:

- في «مانشستر»؟

فتقول أمك:

- نعم، في «مانشستر".

فتسأل أختك الصغرى:

- عندما كنتِ طفلة صغيرة قبل أن تكبري وتقابلي أبي وتنتقلي إلى هنا وتنجبينا؟

فتقول أمك:

- نعم، أعتقد أن هذا ملخص ما في الأمر.

تمررن في طريقكن بمنطقة «الرياح الأربعة» التي عاشت بها معلمة البيانو الخاصة بكِ، ثم تمررن بطريق زوجي تسير فيه عربات النقل.
تسأل أمك:

- من منكن تستطيع أن تدلنا على الطريق إلى المنزل من هنا؟

تقول أختك الصغرى:

- أنا! أنا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتقول أختك الوسطى:

- يا له من أمر ممل! سنمشي في خط مستقيم فقط من الآن.

توقفت أختك عن الغناء، ولكن ما زالت الأغنية تلعب باستمرار في رأسك.

ننغمر برأسنا كلنا في البحر الأزرق العميق.

تفكرين بأن البحر لن يكون أزرق. ستكون هناك حوائط سميكة من الضباب الأخضر الرمادي وستكون المياه سوداء مليئة بالأمواج البيضاء المتدحرجة والهائجة. ستصل الحرارة إلى درجة التجمد. وسيلوح في الأفق جبال ثلجية غير نظيفة ومتعرجة تظهر لكُنَّ من العدم. يقول أبوكِ إن المضحك في أمر سفينة «تيتانيك» أنها كانت بحالة جيدة عندما تركتنا.

تمسحين بباطن كفك جزءًا من البخار الموجود على زجاج السيارة، ولكن لا توجد أشياء كثيرة لُترى سوى الأضواء الواضحة لأعمدة النور التي تقترب، والأضواء الخلفية الحمراء، والمطر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العودة

ترجمة: رانيا صبري علي

عن المؤلف

«ديرموت بولجر»

وُلد في دبلن وهو أحد أشهر المؤلفين الأيرلنديين. كتب أربع عشرة رواية منها: «رحلة العودة»، و«العائلة التي على رصيف الفردوس»، و«تانجلوود» Tanglewood، و«البحر الوحيد والسماء»، و«فُلك النور» التي صدرت مؤخرًا. حازت مسرحيته الأولى «رثاء آرثر كليري» جائزة «ساموبل بيكيت». ومن مسرحياته أيضًا «ثلاثية بوليمن» ونسخته الخاصة من «عوليس» للكاتب «جيمس جويس»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي عُرضت مسرح أيرلندا الوطني، «مسرح آبي». ونشر أيضًا تسعة دواوين شعرية منها الجديد ومنها قصائد مختارة مثل «أصبح ثمينًا فجأة». وحرَّر «ديرموت بولجر» أنطولوجيا للأدب من ضمنها كتاب «بيكادور للأدب القصصي الأيرلندي الحديث». استغرقه الأمر أربعًا وأربعين سنة لجمع أفضل قصص كتبها لتكون ضمن مجموعته القصصية الأولى بعنوان «أسرار لم تُحكَ من قبل»، ومنها أخذنا «العودة إلى المنزل».

كان قريبه «آنتو» هو من رآه أولًا عند عودته مباشرة بعد الفجر، لكن «شاين» علم أن لا شيء يفعله سيُجبر «آنتو» على أن يغير من وضعية وقوفه؛ حيث اتكأ على الباب المصنوع من الصفيح المموج لاستراحة العمَّال. بدأت السماء تمطر رذاذًا أجبره على إيقاف عمله. على الرغم من أنها سنته الثانية بوصفه عاملًا مؤسسيًّا، اكتسب «آنتو» السلوكيات الأصيلة للرجال الأكبر سنًّا العاملين في مجال إصلاح الطرق والتي أثرت في عمله. ظن «شاين» أن كلمة «عمل» هذه ربما تكون مبالغًا فيها مقارنة بما يفعله «آنتو» الآن وما سيفعله لبقية حياته؛ فهو لا يفعل شيئًا سوى غرز عصاته في الحفر المنتشرة على الطريق مرارًا وتكرارًا وكأنها ألغام نائمة لم تنفجر، وما إن تمطر ولو قطرة مياه واحدة حتى يسرع في العودة إلى استراحة العمَّال حيثما كان مكانها لشرب الشاي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما بدأ العمل لصالح الشركة، وفي الشهور الأولى، اعتاد «آنتو» أن يهزأ بفكرة أن العمل يبدأ رسميًّا الساعة الثامنة، ثم تضييع الوقت في عمل أي شيء حتى التاسعة عندما تصل الشاحنة التي ستقِلهم بضع مئات من الأمتار إلى الطريق الذي يجب عليهم إصلاحه. على الرغم من هذا، فقد أصبح «آنتو» عدوانيًّا جدًّا في الفترة الأخيرة، خصوصًا عندما ينتقد أحدٌ وظيفته. كان «شاين» هو أكثر من يضايقه بخصوصها، ولكن على الأقل حصل «آنتو» على وظيفة، على عكس «شاين» الذي يلعب الغميضة مع حياته الذي لا يملك ما يفعله في حياته حاليًّا.

لم يحبه. لم يعد «آنتو» يطيق التعامل معه منذ أن مرر «شاين» الكرة بين ساقيه مرتين أمام كل أصدقائه عندما كان «شاين» في الثالثة عشرة من عمره وكان هو في التاسعة عشرة. اعتاد «آنتو» اعتبار نفسه لاعبَ كرة قدم محترفًا. ولكن الآن، وبعد أن أصبح «آنتو» في الرابعة والعشرين من عمره، وبعد أن ترهل بطنه، وتهدلت كتفاه، ومع السيجارة التي لا تفارق شفتيه، تأكد «شاين» من أن «آنتو» لم يعد يهتم بلعب الكرة.

صرخ «آنتو» بشيء ما ولكن «شاين» لم يستطع تمييز ما إذا كان الكلام موجهًا إليه أم إلى أحد زملاء «آنتو» في العمل، والذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يملأ إبريق شاي عند صنبور إطفاء الحريق على الرصيف. أبقى «شاين» رأسه منخفضًا وقطع المساحة الخضراء حيث كانت الخيول. ابتعدت عنه الخيول خوفًا منه، وكأنه غريب عنها، على الرغم من أنه كان موهوبًا في التعامل مع الحيوانات أكثر من أي فتى عاش في شارع «كريسنت». ربما في الماضي، لم تعش هذه الخيول هنا، في هذه البقعة الخضراء الرطبة، لأن الأولاد اعتادوا ركوبها دخولًا وخروجًا من حي «فينجلاس» لكي تُباع وتُشترى في معرض «سميث فيلد» للخيول. ولكن ذكريات «شاين» الأولى كانت مليئة بالاستيقاظ على صوت صهيل الخيول. وكان يعلم أنه يمكنه مشاهدة تلك الحيوانات الصبور، من غرفته في أي وقت، وهي واقفة كالحرَّاس على العشب المُضاء بضوء القمر.

كانت تلك الخيول كل ما افتقده طوال فترة إقامته مع عائلة «ألين» في إنجلترا في السنوات الثلاث الأخيرة. بالطبع افتقد عائلته وأصدقاءه الذين تربَّى بينهم، ولكن كل من وقَّع على تلك النماذج المخصصة للناشئين في نادي كرة القدم كان يفتقد عائلته وأصدقاءه. كان انجذابه لتلك الخيول مختلفًا، ولم يستطع الحديث عنها إطلاقًا، ولا حتى مع الأولاد الأيرلنديين الآخرين في النادي، واستمر ذلك حتى وقَّع النادي مع «راي أوه فاريل». علِم «شاين» أن أولئك الإنجليز لن يتفهموا الأمر، وسيلقون النكات عن كونه قادمًا من الغرب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمريكي. في أشهر إقامته الأولى كان يركب الباص المتجه إلى مركز مدينة «مانشستر» في أوقات الراحة التي كان يمنحها النادي للناشئين، بين التمارين ومحاولات المدربين المستميتة لإجبارهم على الدراسة. متعته الوحيدة كانت مشاهدة أفراد الشرطة وهم يمتطون الأحصنة، وليس أن يشتري أي شيء من المحلات، لأن الـ١٥ جنيهًا إسترلينيًّا مصروفه الأسبوعي الذي يعطيه إياه النادي لن يكفي سوى الطعام والشراب. أحيانًا، كان يسير خلف حصان الشرطي، ثم يتوقف عن تتبعه عندما يلاحظه الشرطي ويرتاب منه.

تفهَّم كل من في النادي شعور الحنين إلى الوطن، لدرجة أنهم عقدوا ندوات تشجيعية ألقاها عليهم مدرِّب فريق «دون الـ١٧»، وهو لاعب عالمي سابق من أسكتلندا. بعد أن تعافى من سلسلة من الجراحات الغضروفية، عاد ليلعب مع الفريق البديل لكي يتأهل مرة أخرى للعب مع الفريق الأساسي، ولكن كُسرت ساقه في إحدى مباريات الفريق البديل.

ولكن إذا عانق حصانًا ما، خصوصًا لو كان حصان شرطة، فسيعدُّ ذلك تماديًا في الحنين إلى الوطن. ولكنه لم يكن ليقترب من شرطي على ظهر حصان في سنته الأولى، في الوقت الذي كان التجَّار يحاولون فيه استعادة تجارتهم في وسط المدينة بعد انفجار قنبلة دمرَّت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مركز تسوق «آرنديل»، ونصيحة المدِّرب للشباب الأيرلندي بعدم التحدث بلهجتهم عند استخدام المواصلات العامة.

وضع «شاين» حقيبته على العشب الرطب، واقترب من حصان تعرَّف إليه. كان حصانًا عجوزًا وأسود، ومربوطًا بحبل. نفر الحصان منه في البداية ولكنَّه سمح لـ«شاين» بأن يمرر أصابعه خلال عُرفه المتشابك.

ولكن «شاين» لم يكن متأكدًا إذا كان هذا لأن الحصان تذكَّره أم لأن صحته سيئة جدًّا لدرجة أنه فقد الاهتمام بمن يلمسه.

يميل العشب قليلًا في اتجاه الكنيسة وينحدر أكثر بعدها. كان يطارد الكرة على هذا المنحدر أكثر من مرَّة ويسيطر عليها ببراعة بركلة أو بكعبه ليمنعها من القفز نحو الطريق. كان دائمًا اللاعب الأصغر في أي فريق في ذلك الوقت، ويُطلب منه إحضار الكرة باستهزاءٍ عندما تخرج من الملعب، وعلى الرغم من ذلك كان أول من يُختار.

عندما كان في التاسعة من عمره سئم اللعب مع أطفال في مثل حجمه وظل يبحث عن مباريات مع أطفال أكبر منه بثلاث أو أربع أو خمس سنوات. متجاهلًا كِبر حجمهم لأنه كلما كبُر حجمهم أصبح تمرير الكرة بين سيقانهم أسهل. خشي أطفال كبار مثلهم ركله في البداية ولكنهم كانوا يتناسون سنَّه أو ينتابهم الغيظ بسببه ويركلونه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بغضب بعد مضي ١٠ دقائق على بداية المباراة.

كان لتلك المباريات غير المنظمة - التي لعبوها على عشب رطب - الفضل في تهيئته للتأقلم مع أي معاملة خشنة تلقَّاها لاحقًا وهو يرتدي قميص فريق «تولكا روفرز». على الأقل وجود حكم في مباريات الدوري قلل من فرص إصابته بإصابة خطيرة.

في سن الحادية عشرة، كانت الفرق تتنافس لكي ينضم إليها. سيربح فريق من هم دون الثانية عشرة الدوري بسهولة من دونه، ولكنْ فريق من هم دون الرابعة عشرة يحتاجون إلى هدَّاف بشدَّة. ولكن «إدي» مدير الفريق الأول لن يتخلى عنه. أصبح «شاين» نجمه وأصبح «إدي» ملاكه الحارس. وثق به «شاين» ثقة عمياء على الرغم من أن «إدي» لم يكن يتردد في توبيخه عندما يتعدَّى حدوده مثل أي لاعب آخر.

حضر مكتشفو المواهب لرؤية فريق «إدي» في تلك السنة التي لم يخسر فيها الفريق في الدوري وحازوا كأسين. مكتشفون من: «أرسنال»، و«ليفربول»، و«توتنهام هوتسبير»، و«سيلتيك»، ومن أندية مثل «برايتون»، و«ترانمير روفرز» الذين قد لا تشك للحظة في وجود من يمثلهم في أيرلندا. كان «إدي» يغمغم:

- يمكنكم النظر ولكن لا تلمسوا شيئًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يحتاجوا إلى أحد بأن يخبرهم بأن عليهم أن ينظروا ويتابعوا ما يحدث في الملعب جيدًا.

لم يقتصروا على «شاين» فقط ولكنهم راقبوا لاعب خط الوسط «ديريك براون» الذي كان مقتنعًا أنه سيحصل على تجربة أداء عندما ظهر مكتشفٌ من «وولفرهامبتون واندرز»، حتى ظهر «إدي» ليعلن أن الرجل هنا لكي يتفقد الأحمق الذي يدعى «كيين»، والذي يلعب ضدهم لصالح «كراملين يونايتد».

حرص «إدي» ألا يوقّع أحد مع «شاين» في الملعب ولا حتى أمام حاوية النقل الصدئة التي يستخدمونها غرفة مؤقتة لتبديل الملابس. ولكن «إدي» كان غائبًا في الأمسيات. تلك الطرقات المهذبة على الباب الأمامي التي تأتي في الوقت ذاته، في نحو الساعة الثامنة ودقيقتين. ربما افترضت كل الأندية أن جميع الأمهات يشاهدن «كورونيشن ستريت» – Coronation Street وهناك قواعد صارمة بشأن مقاطعة مكتشفي المواهب للأمهات في أثناء مشاهدتهن لمسلسلاتهن الطويلة. لم يكن لتفاجئه أية خدعة أو استراتيجية تمارسها الأندية بعد قضاء ثلاث سنوات في النادي. دائمًا ما يصل أولئك المستكشفون بهدوء. رجال ودودون في منتصف العمر بوجوه شبيهة بوجوه مذيعي الطقس، لا يرغبون في شيء سوى كوب من الشاي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكلمة على انفراد. عندها لم يرد «شاين» أن تكون الكلمة «على انفراد». وشعر برغبة شديدة في فتح نافذة غرفته والصراخ ليسمعه جميع من في «كريسنت» أن ممثلًا لفريق في الدوري الممتاز يجلس في مطبخه. دائمًا ما يُسمح له بالجلوس وسماع جزء من الحديث، ولكن بالنسبة إلى الأجزاء الأخرى كان يُطلب منه الصعود إلى الطابق العلوي. مبدئيًّا كان عمره هو العقبة الوحيدة، كان صغيرًا جدًّا ليوقِّع لصالح أي شخص قبل عيد ميلاده الخامس عشر. ولكن «شاين» شعر أن كل شيء سيتغير بمجرَّد احتفاله بذلك اليوم. فقط لو يتوقَّف والداه عن الاستماع لتحذيرات «إدي» ببساطة ويعطيانه فرصته ليتألق. على الرغم من أنه مرَّت عليه أيام لم يكن فيها متأكدًا من رغبته تلك.

على الرغم من أن «إدي» لا يتحدَّث كثيرًا عن حياته عندما كان يلعب في فرقة الناشئين التابعة لنادي «ليفربول» في السبعينيات. يصعب على «شاين» تخيُّل كيف أن الرجل الذي يبيع الآن أسطوانات الغاز لصالح «مدافئ سوبرسر» من شاحنة مفتوحة من الخلف من الباب للباب، قد صُور من قبل «إيفنينج هيرالد» وهو يصعد على متن طائرة وعنوان الصفحة الأخيرة يمجده لكونه مستقبل كرة القدم الأيرلندية. علم «شاين» من البداية أن والده لم يرده أن يذهب، ولكنَّه كان يعلم أيضًا أن والده لن يقف في طريق قراراته الخاصة. كان والد «شاين» مثل ظلٍ على خط التماس في كل مباراة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طوال حياته حتى غادر المنزل عندما أتمَّ الخامسة عشرة. لم يكن يتدخَّل ولم يهتف بالنصائح ولكنه كان حريصًا على حضوره الهادئ الداعم له. لم يسمح له بالمبالغة في الحماسة عندما يُحرز «هاتريك» أي ثلاثة أهداف أو أن يكتئب في المرَّات النادرة التي لا يلعب فيها جيدًا.

كانت والدته العائق وقتها. كلما اقترب عيد ميلاده الخامس عشر زاد الضغط عليها. هل كانت ضد رحيله لأنه ابنها البكر؟ كانت تتساءل: «ولكن، لماذا تريده الأندية أن يغادر بيته في هذه السن الصغيرة؟ لمَ لا يستطيع إنهاء تعليمه لكي يكون لديه ما يعتمد عليه؟».

كانت والدته تنظر إليه وتبكي ويبكي هو الآخر مرة أو مرتين على طاولة المطبخ، عندما يكون والده في العمل والأولاد الصغار «ماري» و«سام» يلعبان في الدور العلوي. أرهقتهم ضخامة ذلك القرار الذي سيغير حياتهم بلا رجعة.

حتى طرق النادي الأشهر على الإطلاق بابه. كان كاستدعاء لا يمكن لأحد تجاهله. لم يكن يحلم حتى باللعب لصالح هذا النادي لأنه لم يتجرأ على التصديق بأنه جيِّد كفاية، ولكنَّه كان يكتفي بحلمه في أن يسافر يومًا ما ويشاهد مباراة لهم على أرضهم. كان حائط غرفته مغطى بملصقات ذلك النادي. عندما وصل مكتشف المواهب من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ناديهم، جلس «شاين» في المطبخ مُدركًا أن هذه هي اللحظة الحاسمة. ورأى ذلك في عيني والدته أيضًا. تلاشت مقاومتها عندما سمعت الاسم. عندما جاء «إدي» لاحقًا ذلك المساء لم يستمع «شاين» لنصيحته بأن يحترف في نادٍ أصغر، حيث سيكون لديه فرصة أكبر ليبرُز بين اللاعبين؛ بل غضب «شاين» منه، لأنه شعر أن بينه وبين الفردوس خطوة واحدة وبائع الغاز ذاك يحاول إبقاءه طفلًا للأبد.

صرخ في الرجل:

- لأنك كنت فاشلًا هناك فإن هذا لا يعني أنني سأصبح مثلك.

ندم على كلماته وهو يقولها. غادر «إدي» المنزل بعد ذلك، ووقف مع والد «شاين» في الحديقة ليدخن سيجارة. لم يتحدث أحد منهما كأنهما فهِما ضمنيًّا أنه لا يوجد ما يُقال. خطط «شاين» أن يعوِّض «إدي» عما قاله عن طريق ذكره في المقابلات وكيف أنه ساعده على مسيرته. ولكن الفرصة لم تأتِ قطُّ ولا تلك اللقاءات الصحفية.

ابتعد بعد أن مسد الحصان. علم «شاين» أنه لم يكن عليه ركوب تلك الحافلة الرخيصة بمفرده الليلة الماضية ليأخذ القارب ويعود إلى أيرلندا. على الأقل كان عليه إخبار عائلته أنه سيعود إلى المنزل، ولكن اتصاله بهم سيزيد الأمر صعوبة عليه. كانوا سيصرُّون على ركوبه الطائرة وكانوا سينتظرونه في المطار عندما تهبط طائرته، ولن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعلم أحد منهم ما سيقول له عندما يرونه. لن ينطق أي فرد من عائلته كلمة عن فشله بعد كل تلك الضوضاء عن ذهابه إلى إنجلترا. ولكن «شاين» كان يعلم أنه خذل نفسه وخذلهم أيضًا. ذلك الفشل الذي سيتسرب في صورة همسات، والمضايقة التي سيتعرض لها شقيقه الأصغر «سام» بسببه في المدرسة. إذا حاول «شاين» لعب الكرة مرة أخرى على هذه الملاعب، سيواجه عرقلات شرسة من الأولاد الذين كانوا مبهورين بِه منذ سنة عندما عاد إلى المنزل مع «راي أو فاريل». وتظل تلك قصة نجاح يعوَّل عليها.

تذكَّر عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت عيد ميلاده السابع عشر مباشرة. هو و«راي» جالسين على سور الحديقة كالملوك والفتيات من حولهما، و«سام» جالس بخجل بينهما، يتنعَّم بشهرة شقيقه الأكبر.

لم يكن «راي» شخصًا قد يصادقه في أيرلندا. لم يكونا ليلتقيا حتى، سوى مشجعين متنافسين في مباريات «شيلبورن» و«كورك سيتي». كان «راي» قوي البنية كالرجال ويتصرَّف مثلهم أيضًا. و«شاين» كان ضئيلًا وسريعًا ودائمًا ما يُطلب منه أن يبقى في مؤخرة النادي الرياضي ويرفع الأثقال لكي يزداد حجمًا. ولكن لأن كليهما أيرلندي، وضعهما النادي معًا عندما وصل «راي» من «كورك»، بدَّلا غرفتيهما لكي يتشاركان غرفة في بيت السيدة «آلين» حيث يختبران

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حظهما معًا.

لم يعلم أحد في إنجلترا الفرق بين «دبلن» و«كورك» على أية حال. اضطر هو و«راي» أن يتحملا الاستهزاء والسخرية. ولكن بصفة عامة أحب الناس كونهما أيرلنديين. زاد ذلك من شعبيتهما كأنه متوقَّع منهما أن يكونا روح كل حفل وأن يغنيا ويقصَّا القصص فورًا بلا تردد. وكان «راي» يفعل ذلك. لم يكن يغنِّي أغاني البوب الدارجة ولكنْ أغاني تراثية تحكي قصصًا من «كورك»، تلك التي لم يسمع أحدٌ في النادي شيئًا عنها. عن أولاد «فير هيل» - Fair Hill أو عن شراب تفَّاح قاتل اسمه «جوني چامب أب». حتى إن سائق حافلة الفريق الغيور كان يتوقف عن الكلام ليستمع إلى «راي» يغنِّي:

«للتنزه، للتجوُّل، لكرة القدم أو الملاعب.

لشرب الـ«بلاك بورتر» بذات السرعة التي تملؤه بها.

في كل أيام ترحالك لن تجد شيئًا مرحًا.

كرياضيٍّ منطقة «موسكري» الجريء «ثادي كويل».

في الواقع حتى المحترفون الكبار أحبوا «راي»، خصوصًا الأوروبيين الذين أعجبهم عندما يقف بقرب ملعب التدريب ليعلِّق على لعبة جانبية قبل أن يطرده أحد المدربين. كان يسيء نطق كل أسمائهم بطريقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مضحكة بلكنة فخمة شبيهة بلكنة مذيعي قناة الـ«بي. بي. سي». لم يتجرأ أحد آخر على فعل ذلك، ولكن لم يكن ليفلت أحد آخر بفعلته مثلما كان يفعل. كان يتمتع بالسحر الخاص بمدينة «كورك». يستخدمه بجرعات مكثفة كلما استلزم الأمر. اعتاد أن يُخرج نفسه من أي موقف بالخداع، ما عدا تلك الحادثة التي وقعت بعد مرور دقيقتين من الوقت بدل الضائع في أثناء مباراة غير مهمة في استاد مهجور في فرنسا منذ تسعة أشهر.

كانت الجولة عبارة عن سلسلة من المباريات السهلة ضد أولاد فرنسيين ناعمين. كان عليهم اللعب بأحذية الجليد من فرط مهاراتهم!

عندما حصل «راي» على الكرة تلك الظهيرة، لم يلتفت حوله حتى. كان الفريق متقدمًا بسبعة أهداف. الرب وحده يعلم لماذا قرر الحكم إضافة وقتٍ بدل ضائع. كان على «راي» تمرير الكرة فورًا ولكنه تأخر كثيرًا، ليستمتع باللحظة كما يركّز على كلمة معينة من مزحة ما. لم يرَ حتى العرقلة وهي قادمة من خلفه، لم تكن حتى عرقلة بل كانت أشبه بتعدٍ.

لم يكن هناك أي محطات تليفزيونية أو كاميرات أو مصورين، ولكن «شاين» لم يحتج إلى ما يذكّره بما حدث يومها. كان يعيش اللحظة ببطء في مخيلته كل ليلة لمدة شهر. دوي ارتطام مسامير الحذاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعظمة ركبة «راي»، ساقه ملتوية عكس اتجاهها وتلك القرقعة - صوت لا يشبه شيئًا سمعه من قبل - التي سبقت خروج الدم وبروز العظمة. صرخ «راي» ولكن «شاين» لم يسمعه. بدا كأن الصوت أسكت كل شيء آخر وظل يتردد داخل جمجمته. أصبحت المشاجرة التي تلت ذلك مشاجرة جماعية لدرجة أن المدربين كانوا جزءًا منها.

كان الفتى الذي عرقل «راي» حقيرًا وضعيفًا، تلقى للتو خبرًا بأنهم سيستغنون عنه. دافع عنه زملاؤه الفرنسيون بعقلية الهمج التي تميّز جميع لاعبي كرة القدم، على الرغم من أن «شاين» لاحظ أنهم يكرهونه أيضًا. أُخلي الملعب بعدها وأسرع اللاعبون إلى الحافلة وقيل لهم إنهم سيرسلون ملابسهم إلى الفندق.

لا يزال «راي» يصرخ على العشب في الوقت الذي يعتني به المسعفون المتوترون. اضطر الأطبّاء إلى إجراء عمليتين جراحيتين. قال «راي» مازحًا عندما جاء «شاين» لزيارته في المستشفى:

- اللعنة! ذهبت إلى فرنسا لأضاجعهم بسرعة ولم أتوقع أن أعود بثلاثة مسامير دائمة في ساقي.

لا يستطيع أحد أن يقول إن النادي لم يقدِّم ما بوسعه لـ«راي». كان معه أفضل الأطباء واختصاصيي العلاج الطبيعي، وبعدها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرسلوه إلى «كورك» على الدرجة الأولى. قد يكسر أي لاعب ساقه في أي وقت ولكن «شاين» توقَّع حدوثها في «أنفيلد» أو في «هايبوري»، حيث سيقف الحشود ليحيوا شجاعتك بين ضوء الكاميرات والفلاش. على الرغم من أن عرقلة قد تنهي مسيرتك المهنية قد تحدث في أي لحظة حتى في تدريب تافه في ظهيرة يوم ثلاثاء رطب، فقد أثَّر الأمر في جميع الناشئين في الأسابيع القليلة الأولى لدرجة أن المدرِّب ظل يصرخ عليهم:

- هل أنتم رجال أم شواذ؟

كانت «شواذ» كلمته التعذيبية المفضلة، لكنها كانت تجعله يبدو كأحفورة من حقبة أخرى. وقد أثبت بالطبع أنه ليس شاذًّا عندما كُسرت ساقه، وخسر بيته وزوجته عارضة الأزياء بسبب الكحول، وذلك قبل أن يرمي له النادي بطوق النجاة ليعود ويدرِّب الناشئين في قاع السلسلة الغذائية. وبالتدريج نسي الأولاد خوفهم ولكنهم لن يعودوا إلى غرفهم وهناك سرير خالٍ في الغرفة وإلى السيدة «آلين» التي بكت بشدَّة في الليلة التي غادر فيها «راي» إلى «كورك»، واستدعت «شاين» إلى غرفة الجلوس - التي تبقيها مغلقة لاستعمالها هي وزوجها فقط - لكيلا يكون وحيدًا.

قالت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كان ألطف ولد، ولكنه كان يضيِّع وقته. أوشكت على التوقف عن استقبال أمثالكم.

سأل «شاين»:

- أمثالنا؟

نظرت إليه السيدة «آلين» وتوقفت عن الحديث كأنها أدركت ما قالته توًّا.

أجاب زوجها بهدوء نيابة عنها:

- أنتم أيها الأولاد الأيرلنديون. أعلم أن للنادي تاريخًا طويلًا من اللاعبين المحترفين الأيرلنديين، ولكنهم كانوا دائمًا موسميين، ويوقِّعون مع نادٍ آخر قبل أن يُتعاقد معهم. لقد رأيت العديد من الأولاد أمثالكم يصعدون وينزلون السلالم هنا أو يتسكعون عند النادي. ولكنْ مرَّت أربعون عامًا منذ أن قطع أي ولد أيرلندي المسافة التي تفصله عن كونه ناشئًا وانضمامه إلى الفريق الأول. بالطبع مع كل ذلك المال على المحك من سيراهن عليكم في هذا النادي على أية حال؟ إلا إذا كنت الرب نفسه. هناك مخاطرة كبيرة. إذا كانت هناك أيَّة فجوة في الفريق الأول سيقطِّعون أوروبا بحثًا مع دفتر شيكات لشراء الخبرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تذكَّر «شاين» كلمات السيد «آلين» مجددًا وهو يربِّت على الحصان العجوز للمرة الأخيرة ومشى على العشب المشبَّع بالماء الآن ليعبر الطريق ويصل إلى الصف الأول من البيوت في «كريسنت». لم يستيقظ أحد بعد، ولكن ظهر ولد مرتديًا البيجامة وراء نافذة بيت «ماكورماك» ليحدق إليه.

لا بدَّ أن هذا شقيق «جوي» الأصغر الذي كان مجرَّد رضيع عندما غادر «شاين». اعتاد «شاين» أن ينادي «جوي» عندما كان في الرابعة من عمره ليمشيا إلى المدرسة معًا. لم يفترقا قطُّ طوال فترة طفولتيهما. يركلان الكرة معًا لساعات على الحائط في الحدائق. وفي كل مرة يعود فيها «شاين» إلى المنزل في سنته الأولى مع النادي، كان «جوي» يركض إلى منزله ليسمع عن غرف تغيير الملابس، والملاعب، وجداول التدريب. ولكن «جوي» ابتعد مؤخرًا وكان يرتبك في بعض الأحيان. لماذا ظل «شاين» يتصل به ليراه عندما يعود إلى المنزل؟ في البداية، ألقى «شاين» اللوم على الغيرة، ولكن الآن أدرك أنه فقد الاهتمام. فقد تغيرت الحياة: لدى «جوي» الآن أصدقاء جدد، اهتمامات جديدة، حياة جديدة.

والشيء ذاته ينطبق على كل أصدقائه القدامى. تفرَّق فريق «إدي» المشهور، وأفضل اللاعبين فيه يلعبون الآن في «شيري أوركارد»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و»هوم فارم». بدأ «إدي» من الصفر مجددًا وهو يدرِّب الآن مجموعة من الأولاد في الثامنة من عمرهم وأنوفهم مليئة بالمخاط، ويعلمهم كل ما يعرفه.

لطالما علم «شاين» مكانته في فريق «إدي» ولكن في إنجلترا أنت تتعلم كيف تفكِّر في كل ملاحظة تسمعها. ولكن الأمور المهمة تُقال خلف ظهرك، بعيدًا عن مسامعك. في الأشهر الأخيرة، عندما أعادت الإدارة النظر في أمره مجددًا، كان الأمر مختلفًا عن كونك في الثالثة عشرة من عمرك وتحت جناح «إدي». الآن، يرون وجوهًا جديدة من إدارة النادي على خط التماس لمشاهدة الشوط الثاني من مباريات الناشئين.

علم كل ولد في فريق الناشئين أن الأمر جاد! لم يكن الأمر مجرَّد اختيار للإدارة بل كان إعدامًا انتقائيًّا. لم يكن هناك مكان للاختباء من عيون عديمي الرحمة أولئك. كان مزاج الأولاد مختلفًا الآن: الجميع يراقب الجميع، مدركين أن الأغلبية لن تنجو.

قبل رحلتهم السابقة إلى فرنسا، لم يشك «شاين» مطلقًا في أنهم سيعرضون عليه عقدًا. ربما هناك لاعب أو اثنان من الناشئين الآخرين قد يكونون أكثر مهارة منه، ولكنهم كانوا كالدجاج المذبوح؛ لم يقتصر الأمر على كونهم قلَّة غير منضبطة، ولكنهم كانوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قليلي العقل أيضًا. طوال السنوات الثلاث الماضية، تغلَّب على حنينه إلى الوطن، والذي كان سيئًا جدًّا في شهوره الأولى بعيدًا عنه. لدرجة أنه في ليالٍ عدَّة كان يحزم حقائبه ليلحق بحافلة رخيصة متجهة إلى أيرلندا، ويجلس على سريره ويرتجف وحده في تلك الغرفة الصغيرة، ولكن بطريقة ما يجد الشجاعة لكيلا يستسلم. كان قد اكتسب الوزن الكافي وأظهر قوَّة شخصية وصفات قيادية كافية ليُكافأ بشارة الكابتن. ولكن الآن، عندما أصبح الوضع جادًّا، وجد نفسه ينسحب من جميع التحديات. ليس على نحو واضح لدرجة أن يلاحظه المتفرِّج، ولكنَّه تراجع بما فيه الكفاية كي تلاحظه تلك العيون الشرسة الخبيرة على خط التماس، واللاعبون الآخرون لكي يستشعروا خوفه ويستغلونه.

لم يشكك أحد في شجاعته من قبل، فقد حصل على ١٢ غرزة فوق عينيه وكسر ثلاثة أضلاع في سنته الأولى. ولكنَّه ظل يستيقظ كل ليلة غارقًا في عرقه، ما زال قادرًا على سماع صوت كسر العظمة والصمت الثقيل الذي سبق صرخة «راي». لو لم يصل أي لاعب أيرلندي إلى النادي منذ أربعين عامًا، إذًا لماذا بحق الجحيم يتصل مكتشفو المواهب بالأهل لكي يسمعوا وعودهم؟ كان ليدخل الاختبارات للحصول على شهادة تخرجه في «دبلن» الآن، ويتمشى مع «جوي» إلى المدرسة ويعاين الفتيات، وربما يلعب في الفريق الثاني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع فريق في دوري أيرلندا للأندية، ووالده يشاهد كل مباراة بصمت من المدرَّج الفارغ. لكنه الآن، كان بعيدًا عن العين وبعيدًا عن القلب. في مناسبة ما العام الماضي، ذُكر اسمه على لوحة لفريق أيرلندي لمن هم دون الثامنة عشرة. اتصلت به والدته بحماسة لتخبره أن جارة لهم رأت الخبر على الـ«تيلي تكست».

اتصل اتحاد كرة القدم الأيرلندي بالنادي، ولكن تعافت إصابة ولد لم يسمع عنه من قبل كادت مسيرته تنتهي مع فريق «هدرسفيلد تاون» المتواضع، واستعاد مكانه في الفريق. «هدرسفيلد تاون»؟ ذلك الفريق الأيرلندي الذي ربح بطولة دون الثامنة عشرة الأوروبية، عُرض النهائي على التلفزيون الأيرلندي مباشرة. عادوا إلى المنزل كالأبطال، مثل فريق «جاك شارلتون»، حشد كبير في المطار، وموكب حافلة مكشوفة وكل شيء. وقَّع نصفهم مع فرق تافهة في نهائية قائمة الأندية أو في أيرلندا نفسها. ولسبب ما، أرسلت إليه والدته ما أُذيع من حفلة التي أقيمت لهم. لم يكن والده ليفعل ذلك.

ذلك الصباح، سيعودون إلى المنزل. علم أنه لن يعود إلى ذلك الاستاد ولا حتى بوصفه متفرجًا. كان كمصنع لحوم أكثر منه نادٍ، مفرمة للأحلام. لسنوات وهمية قليلة أنت لاعب رسميًّا، لديك بطاقتك الخاصة وكل شيء. تمشي على سجَّاد فخم، وتأكل أفضل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأطعمة في المقصف، لديك أطبَّاء يعالجون كل وعكة صحية وكل كدمة، ولكن في الواقع أنت نكرة. فقط مجرَّد وجه آخر في الممر المؤدي إلى غرفة تبديل الملابس. وجه لن يلاحظ أحد غيابه عندما يُستدعى إلى مكتب المدير. رأى «شاين» هذا كثيرًا، أولاد في السابعة عشرة والثامنة عشرة جالسون بمفردهم في الاستاد الفارغ ويبكون. يحوِّل المارة أبصارهم بعيدًا عنهم حتى يرسل المسؤول عن تنظيف المكان عبر صفوف من المقاعد المهجورة ليخبرهم بهدوء أنه حان وقت المغادرة، لأنه حان موعد جولة ولد بعين حالمة في الرابعة عشرة من عمره مع والديه حول الاستاد.

كتم «شاين» الأمر بالكامل في أثناء المباريات الأربع الأخيرة في الموسم. شعر أن جسده مليء بالرصاص. كان يرهق نفسه في الدقائق العشر الأولى، على نحو جنونيّ ليعوِّض عن الوقت الضائع لدرجة أنه لم يضبط خطواته جيدًا. كان يُستبدل في بداية الشوط الثاني من كل مباراة، ويجلس بعيدًا عن الآخرين على الدكة، ويلاحظ كيف أن المدرِّب توقَّف عن تشجيعه أو نصحه. لم يتفوه الأولاد الآخرون على الدكة بكلمة، فقد علموا أن رحيل «شاين» يعني فرصة غير متوقعة لحصول أحدهم على عقد.

لم يكن «شاين» عائدًا إلى المنزل اليوم فحسب، ولكنَّه كان هاربًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخبر نفسه أنه على الأقل غادر بشروطه الخاصة، وأنقذ نفسه من الاستدعاء إلى مكتب المدير. تقريباً سيواجه كل فريق الناشئين تلك النهاية في الأيام المقبلة، باستثناء واحد أو اثنين على الأكثر سيبقيان موسماً آخر. كل زملائه السابقين ما زالوا يؤمنون أن الاختيار سيقع عليهم، كانوا مرتعبين من الخواء الذي سيواجههم عندما يخرجون من ذلك المكتب، وإلغاء بطاقاتهم الذكية، ومحو أسمائهم في سريَّة من النظام.

لم يكن «شاين» متأكداً ما إذا كان سيلعب كرة القدم مجدداً، لأنه حتى إذا وقَّع مع «شيلبورن» في دوري أيرلندا، حيث قال «إدي» إنه تعلَّم صنعته هناك، لن يكون معروفاً بأنه الفتى الذي كان جيداً كفاية ليلعب لصالح «شيلبورن». سيكون دائماً الفتى الذي عاد من إنجلترا. الفتى الذي كان جيداً كفاية فقط ليلعب لصالح «شيلبورن». الفتى صاحب الركلة الذهبية والذي ترك مستقبله البرَّاق وراءه.

توقف «شاين» عند بوابة منزل عائلته. يبدو أنه لا أحد هناك بعد، أو على الأقل لم يضئ أحد ضوءاً في الصالة. سيارة والده الـ«نيسان صاني» القديمة مركونة في المدخل الذي صنعه في الحديقة الأمامية. رأى كرة قدم مثقوبة به، يبدو أن «سام» كان يلعب بها. أعاقت بوابة خشبية اتجاه الطريق الجانبي، ولكن «شاين» كان يعرف أنك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا مددت يدك فوقها يمكنك فتح التِرباس الذي في الناحية البعيدة من البوابة. جاء الكلب عند الطريق الجانبي لكي يحييه، ولكن ببطء؛ ساقه متيبسة بسبب التهاب المفاصل. على الأقل لم ينبح الكلب كأنه دخيل. أسقط «شاين» حقيبته وانحنى ليعانق الحيوان. لهث الكلب بعد المجهود الذي بذله في تلك الدرجات القليلة، ولكنَّ عينيه احتفظتا بتلك النظرة المألوفة كالعادة؛ كأن الحياة تربكه إلى حد ما. عندما وقف «شاين» بعد معانقة الكلب، علم أن عليه مواجهتهم جميعًا: الأب، والأم، و»سام»، و»ماري». وأن يواجه المطبخ المزدحم الذي يبدو وكأنه يصغر مع كل زيارة للمنزل. الغرفة الصغيرة الذي سيتشاركها الآن مع شقيقه الأصغر الذي لا يعرفه تقريبًا بعد قضاء ٣ سنوات في الخارج.

ربَّت على الكلب مرَّة أخرى ووقف. كان المطبخ مضاءً. علم أن والده سيكون مستيقظًا قبل أي فرد من العائلة. يبدأ في إعداد الفطور ويستعد لينادي من في الدور العلوي. استدار والده عندما دفع «شاين» باب المطبخ. في يده ملعقة مسطَّحة يستخدمها لقلب الطعام في المقلاة. نظر إلى حقيبة سفر ابنه.

- لقد أتيت... هل تريد الفطور؟

كان هذا كل ما قاله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأى «شاين» والده ينفعل مرتين فقط في حياته. ثبات انفعالي يجعلك غير متأكد مما يدور في رأسه، وهو ما أزعج «شاين» دائمًا. حتى عندما وقَّع «شاين» عقد الناشئين مع النادي لم يتحمَّس والده للأمر. ولكن الآن كان «شاين» ممتنًا لقلة الأسئلة وللطريقة التي اشترى له والده بها بعض الوقت ليفسِّر حضوره بطريقته الخاصة.

أجاب «شاين»:

- لن أرفض أي طعام تقدَّم لي، أنا أتضور جوعًا.

جلس «شاين» إلى الطاولة. لم تتغير الأكواب حتى بعد ٣ سنوات. لقد افتقد هذا المنزل كثيرًا. لكنه الآن لا يبدو كبيت له. كيف له أن يعود ويتأقلم هنا؟ يتابع والده الطهو مصدرًا أقل صوتٍ ممكن.

قال «شاين»:

- أُرسلت إلى المنزل. لا يعتقد النادي أنني جيِّد بما فيه الكفاية. لن يعرضوا عليَّ عقدًا.

قال والده:

- كان عليك الاتصال، يجب ألا تخبرنا بهذه الطريقة.

- لن يكون الأمر رسميًّا حتى يوم الجمعة. أنا فقط لم أرد الانتظار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأنا أعرف أن الجميع سينظرون إليَّ بشفقة. إن الفشل وحده صعب بما فيه الكفاية، فما بالك به عندما يعلم الجميع به.

- فشلت؟

لاحظ «شاين» أن يد والده ترتجف وهو يضع شريحة لحم الخنزير وبعض البودنج الأسود على صحن. استدار الرجل. عينه الزرقاء النقيَّة تحدِّق إليه مباشرة.

- أنت في الثامنة عشرة من عمرك يا بني، لذلك توقَّف عن قول الهراء. هل «إدي» فاشل؟ كل الناس هنا تحترمه. هل أنا فاشل؟ وقد ربيتك وأنا أعمل ورديات في «يونيدير». كيف لك أن تكون فاشلًا يا بني؟ أنت لم تبدأ حياتك حتى!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دماء وماء

ترجمة: يمنى خالد

عن المؤلفة:

«أيليش ني غوجنا»

وُلدت في «دبلن» في أيرلندا عام ١٩٥٤. كتبت ما يقرب من ثلاثين كتابًا من بينها سبع مجموعات قصصية قصيرة، والعديد من الروايات، وكتب الأطفال، ومسرحيات، والكثير من المراجعات الأدبية. تضم أعمالها روايات «الراقصات يرقصن»، و«ملاذ الجيران»، و«الثعلب»، و«ابتلع»، و«خيال المآتة»، وقصصًا مختارة، و«اثنى عشر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألف يوم: مذكرات الحب والخسارة». حصلت على العديد من الجوائز الأدبية بما فيها جائزة «بين» للمساهمة الممتازة للأدب الأيرلندي، وجائزة أُدرجت في لوحة الشرف الأدبية الموجودة في قاعة «إنيسي» بأيرلندا. ستصدر مجموعتها الأخيرة من القصص القصيرة في أكتوبر عن دار نشر «بلاك ستاف» الأيرلندية بعنوان: «الأحمر الصغير وقصص أخرى». كما عملت أيضًا على تحرير مختارات من مقالات كاتبات أيرلنديات ولدن في منتصف القرن العشرين بعنوان «انظر! إنها كاتبة».

لم تتصرف خالتي بشكل طبيعي. كما نشير إليها، أنا وأختي، بـ»الخالة المجنونة» في طفولتنا. ولكن كانت هذه مجرة استعارة غرضها حمايتنا من الحقيقة التي لم نستطع تقبلها، وهي أن خالتنا تعاني التخلف العقلي. ربما كانت ما تعانيه هو تخلف بسيط، وكانت فقط بطيئة الفهم. نجحت خالتنا في العيش وهي مزارعة وحيدة: تؤجر الأرض، وترعى بقرة، والقليل من الدجاج والبط، وتستمع إلى النميمة المحلية من الجيران الذين اتصفوا بالطيبة الكافية التي جعلتهم يزورونها بشكل دوري كل مساء. تميز عدد لا بأس به من الجيران بالطيبة؛ وهو ما جعل منزلها وجهة شائعة للزائرين منهم، وربما هذا هو سر صمودها في وجه الحياة. وعلى الرغم من ذلك، فلم تنبس ببنت شفة خلال أحاديث الجيران. لم تلفظ سوى بكلمات تخص مواضيع محددة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتخطت جميع المواضيع النظرية مستوى تفكيرها.

لو كانت وُلدت في الخمسينيات أو الستينيات، لكانوا أعطوا حالتها وصفًا علميًّا، وأخضعوها لعلاج خاص في مدرسة خاصة، وعلموها مهارات خاصة وعينوها في نهاية الأمر في ورشة خاصة لتقوم بعمل خاص. من المؤكد أن هذا العمل سيكون أكثر رتابة من العمل الذي تقوم به حاليًّا في الواقع. كانت سعيدة الحظ إذًا بأنها وُلدت في عام ١٩٢٥ وكبرت على أنها طفلة طبيعية. فشلت عائلتها في إدراك أن ابنتهم مختلفة عن الآخرين، ولم يسعوا إلى الحصول على رعاية طبية لها. فقد اعتبروها شخصية «حساسة» وحسب. كان سيبدو مصطلح «التأخر العقلي» دون مغزى في هذا الزمن على أي حال، وفي هذا الجزء من مقاطعة «دونيجال» التي نشأت فيها هي وأمي حيث كانت اللغة الأيرلندية هي الشائعة، أو الوحيدة. لا بدَّ وأنه تم الاستنتاج في صمت أنها غريبة قليلًا خلال نشأتها. ولكن يبدو أن الأشخاص حولها لم يجدوا صعوبة في استيعاب هذه الحقيقة، وحكموا على شخصية خالتي بالمعايير البشرية في المطلق، والتي كانت في بعض الأحيان رحيمة وفي البعض الآخر قاسية.

عاشت خالتي في بيت المزرعة في مدينة «باليترا» على شبه جزيرة «إنش أون»، وكنا نزورها سنويًّا. قضينا إجازتنا السنوية تحت سقف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منزلها، ولولا مكان السكن التي كانت توفره لنا، لما استطعنا أن نسافر على الإطلاق. ولكننا لم نأخذ هذه النقطة في عين الاعتبار.

كنا نبدأ دائمًا رحلتنا في السبت الأول من شهر أغسطس؛ محملين بملابسنا في صناديق كرتونية، وما يكفينا لمدة أسبوعين من أغراض البقالة التي اشتريناها من محلات المدينة الرخيصة، ومن أسواق الشارع. امتدت الرحلة قرابة اثنتي عشرة ساعة في سياراتنا الأثرية والمنهكة. أتذكر نوعين منها، تلك السيارات قديمة الأزل التي امتلكها أربعة أشخاص قبلنا: «الموريس فايت» ذات اللون الأخضر الداكن والمقاعد الجلدية المعطرة، و»فورد أنجليا». تعطلت في بعض الأحيان على الطريق وتسببت لنا في تأخير طويل وانتظار في المرائب المثيرة للغثيان، حيث كنت أقف مع أبي عند إصلاح الميكانيكي للسيارة، أو أذهب مع أمي وأختي للتمشي في الطرق الريفية، أو بجانب الشارع الواسع الحزين المليء بمدن السوق الصغيرة.

كانت الرحلات ملحمة ممتعة بين مناظر «أيرلندا» التي تميز كل منها بمذاق مختلف على الرغم من العراقيل العابرة. استمتعنا بالأراضي المسطحة المتربة والغنية خارج «دبلن»، وبالتلال الممدودة من الرواسب الجليدية «الدروملين» وما تنم عن أسرار ووعود بمستقبل أفضل. أُعجبنا أيضًا بالمنحدرات الفخمة والأنهار المتدفقة والفيلات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغالية لمقاطعة «تيرون»، وأخيرًا المكافأة الحميمة؛ وهي رؤية أزهار «القندول»، و«الحشيشة»، و«النسرين»، و«الفوشية» التي تتميز بها مقاطعة «دونيجال».

كانت «دونيجال» مختلفة في تلك الأيام؛ مختلفة عما هي عليه الآن، ومختلفة في وقتها عن الأجزاء الشرقية من الحضر في «أيرلندا». كانت بشكل عام وأساسي مكانًا ريفيًّا. كان الناس هناك أصحاب فكر عتيق فيما يخص الملابس والتصرفات، وحتى في شكلهم الخارجي. فقد تحددت وجوههم التي تأثرت بالمناخ ببدلهم السوداء أو الرمادية، وزادهم العمر جمالًا. مددت أردافهم الواسعة القماش القطني للوزرات ذات اللون الأزرق الداكن والمزينة بالورود، وهو نوع من الزي الموحد لنساء الريف التي تخلت عنه أخواتهن من نساء المدينة منذ زمن طويل، هذا إذا امتلكوه من الأساس.

كانت أماكن الإقامة عبارة عن أكواخ مسقوفة بالقش «البيت الريفي الأيرلندي». أو عبارة عن بيوت مزارعين إضافية رمادية اللون. لم يكن هناك سوى كوخ كبير من دور واحد فقط في الأُسقفية التي عاشت بها خالتي، أما الآن فقد امتلأت المنطقة بها.

زادت كل هذه الأشياء من بساطة المكان، وغرابته، وتفرده.

كان بيت خالتي مُصممًا لأن يكون من بين المنازل ذات الطابقين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومحاطًا على ما يبدو بمجموعة عشوائية من بيوت المراحيض الخارجية في ساحة كبيرة تسمى «الشارع». كنا نصل دومًا إلى هذا الشارع نحو الساعة التاسعة مساءً بعد رحلة استغرقت طوال اليوم. كانت خالتي في انتظارنا متكئة إلى الباب النصفي. وعلى الرغم من كونها صماء، فإنها كانت تسمع صوت السيارة وهي على بعد مئات الياردات القليلة محدثة جلبة على الطريق المترب. كانت سيارتنا دائمًا من النوع الذي يحدث هذه الضوضاء. كانت تقف بمجرد رؤيتنا، وتطوي يديها في خجل حتى نخرج من السيارة. ثم تمشي ببطء نحونا وتصافحنا بعناية واحدًا تلو الآخر وأولنا أمي. كانت صفات مثل الاهتمام والطابع الرسمي والبطء هي الصفات الأكثر وضوحًا في شخصيتها.

نبدأ في حمل أمتعتنا واحتلال المنزل بعد انتهاء التحيات. عبرنا من خلال المدخل المُصمم على ما يبدو لنوع من البشر أقصر قامة منا. ثم نجلس أمام النار المشتعلة، وتتحدث أمي بصوت عالٍ ومبهج وتحكي لخالتي الأخبار من «دبلن» وتطلب منها أن تخبرها بالنميمة المحلية. تحاول خالتي في بعض الأحيان أن تبادلها الحديث، ولكن في أغلب الأوقات لا تفعل ذلك. تشير بعد خمس دقائق أو نحو ذلك وهي مستاءة قليلًا، أنها كانت تتوقع قدومنا مبكرًا، وأنها كانت تنتظر سماع السيارة لأكثر من يومين. وتشرح أمي بطريقة دبلوماسية وصبور، ونحن على أعتاب بدء الإجازة في صوت عالٍ أنه كان من المتوقع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصولنا اليوم. نصل دائمًا في السبت الأول من الشهر، أليس كذلك؟ لم يبدأ «جون» عطلته سوى الجمعة بالطبع. ولكن لم تكتب أمي قط بطريقة ما إلى خالتي لتخبرها بموعد وصولنا. ولم يكن السبب وراء هذا هو كون خالتي أمية، فمن الممكن لأي جار أن يقرأ لها الرسالة. ولكن يرجع السبب إلى عادة اجتمع عليها والداي وخاصة أمي، وهي أنهما لم يكتبا قط إلى أي أحد بخصوص أي شيء إلا موضوع واحد فقط، الموت.

وتوقع أبي وأمي كل هذه الطقوس الخاصة بهذا الحديث الجانبي أمام النار (على الرغم من أنه لم يبالِ حتى بالمشاركة)، جلسنا أنا وأختي في صمت على المقاعد ذات الظهر الصلب في تململ، ونظرنا حولنا إلى الأغراض المألوفة في الغرفة: القلب المقدس، والزهرة الصغيرة، والتقويم من أجراس «بونكرانا» يصور طفلًا أشقر يضحك، والقوس الأحمر الخاص بهذه الطبقات. جاوبنا عن أسئلة خالتي سريعًا إجابات من كلمة واحدة، وجميعها عن المدرسة. تحملنا المزيد من الضجر، بعد أن هزمتنا سآمة اليوم منذ الصباح.

تنهض أمي بعد وقت طويل، وتتمدد، وتحضر وجبة من اللحم المقدد والسجق من محل «رسلز» الموجود في شارع «كامدن». تضيف خالتي بعض المؤونة التي حضرتها لنا: بيض، وزبدة قامت بصنعها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بنفسها، وخبز الصودا التي خبزته في فرن القدر في أوعية ذهبية ضخمة. لطالما رفضت أن أكل هذا الخبز؛ لأنني أرى أن طعمه منفر، ولأنني لم أظن أن خالتي قد غسلت يديها جيدًا في أثناء تحضيره. ولكن أختي لم تأكل سوى هذا الخبز طوال فترة عطلتنا في هذا المنزل، واعتدت أن أسخر منها بشأن هذا الموضوع، وحاولت أن أغصبها على أن ترى وجهة نظري. ولكنها لم تفعل.

اعتدنا بعد احتساء الشاي - على الرغم من تأخر الوقت عادة - أن نجري بالخارج ونلعب. كنا نزور كلًّا من بيوت المراحيض الخارجية بالدور، على أمل أن نرى بومة في الحظيرة، ثم نركض ناحية النهر المتدفق وراء الحديقة الخلفية. كان هناك جسر صخري فوق النهر واعتدنا حتمًا أن نلعب نفس اللعبة في أول ليلة، وهي أن نرمي العصى في النهر بالقرب من ناحية واحدة من الجسر، ثم نركض بأسرع ما يمكن إلى الجهة الأخرى حتى نمسك بها، بينما هي تسبح في النهر. كان لهذا النشاط المُقام في عتمة الليل وبين ظلال التلال السوداء أثر السحر؛ فقد وضعني على أول الطريق للاستمتاع بأجواء العطلة. وفي الليلة الأولى بجوار هذا النهر، كنت دائمًا أكتشف بداخلي فجأة شعورًا بالسعادة والحرية لم أكن مدركة لوجوده في العادة. بدا لو أنه خرج من جزء ما خفي بداخلي، مثل العصا الظاهرة من تحت الجسر، وتناقض مع رهاب الأماكن المغلقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطفيف الذي أعانيه، والتوتر الذي كنت دومًا أعانيه في بيت خالتي. عادة ما نذهب إلى فراشنا في غرف مظلمة بالطابق الأعلى وشعور الانتعاش والبهجة يداهمنا. كانت الغرف مكسوة بألواح خشبية بيضاء في الماضي، أما الآن فقد اكتسبت لونًا أقرب إلى لون الزبدة. كان للغرف نوافذ لا يتعدى حجمها القدمين المربعين والتي كان يجب أن نسندها بعصا إذا أردنا لها أن تظل مفتوحة. كانت النوافذ صغيرة للغاية وأحبت أمي أن ترجع السبب إلى أنهم عاشوا بوقت فُرضت فيه الضرائب على الزجاج، ولكن كانت الأبواب صغيرة أيضًا.

كنت أعد الألواح في السقف وأنا مستلقية حين أستيقظ في الصباح، ثم أقوم بعد العقدات على الألواح حتى أسمع في نهاية الأمر صوت تبعثر خطوات أقدام على السلالم غير المغطاة بالسجاد. ويعلن صوت خلط أواني المطبخ استيقاظ أمي واقتراب موعد الإفطار. كنت أركض إلى الأسفل إلى غرفة غسل الأطباق، التي كنا نستعملها لنقضي حاجتنا ونغتسل. كان الحوض مسنودًا إلى طاولة خشبية، وكانت المياه في دلو أبيض معدني على الخزانة. كانت هناك أيضًا قطعة من الصابون في صحن على عتبة النافذة أمام الحوض. يمكنك أن ترى القليل من شجرة الدردار من خلال النافذة وتل أرجواني وأنت تغتسل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الأمر بطريقة ما ممتعًا، ولكن فكرة الاغتسال كلها في هذا المكان كانت تقلقني كثيرًا. شعرت أنني أغتسل في العلن. كان هناك شعور بالخطر دائمًا أن أحدهم سيقتحم المكان ويجدك وأنت نصف عارٍ وتغسل تحت إبطيك. أحببت أن يكون اغتسالي في خصوصية وغير مراقب.

أثارت غرفة الغسيل هذه القلق في نفسي لسبب آخر. كانت هناك بقعة كبيرة من مادة صفراء قذرة على الحائط بجانب الخزانة، لم أرَ في حياتي شيئًا مثلها. بدتَ كما لو أنها نوع ما من الفطريات، والله وحده يعلم لماذا بما أن المنزل نظيف على غير المعتاد.

نفرني هذا الشيء لدرجة أنني لم أجرؤ حتى السؤال عنه، وفعلت ما بوسعي لأتجنب النظر إليه حين أكون في محيطه؛ سواء كنت أغتسل أو أعيد دلو الماء من البئر، أو أقوم بأي شيء آخر. أدركت بعد سنوات لاحقة حين كنت أدرس علم الأعراق في الجامعة أن هذه البقعة ما هي إلا زبدة مدهونة على الحائط بعد كل مرة تؤكل فيها من أجل جلب الحظ. ولكن رمزت بالنسبة إليَّ إلى شيء آخر؛ شيء مروع لدرجة لا يمكن تصورها.

نتناول الإفطار بعد أن نرتدي ملابسنا. أعددت أمي، والتي كانت تطبخ طوال فترة عطلتنا، اللحم المقدد والسجق المقلي. تركت خالتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسؤولية الأعمال المنزلية لأمي طوال الأسبوعين، واتخذت دور الطفلة في منزلها الخاص على الرغم من أنها كانت بارعة في طبخ المقليات. كانت مثل الحماة القروية التي وُجدت في غير مكانها الأصلي. قضت وقتها ترنم في بيت الدجاج، وتطعم القطة، أو في أغلب الأحيان كانت تجلس فقط مثل الرجل تنظر عبر النافذة بينما كانت أمي تعمل.

تشعر أمي بالاستياء بعد ثلاثة أيام من كل هذا، وتبدأ في التمتمة بلطف ولكن بإصرار وتقول لنا «هذه ليست عطلة!»، وعلى الرغم من تفهمنا أنا وأختي، وأمي بالطبع، للأسباب وراء سلوك خالتي، فإننا دائمًا ما نهز رأسنا بالإيجاب ردًّا على أمي. قمنا بإعداد الطاولة بما أننا كان علينا أن نساعد في أعمال المنزل، كما قمنا بغسل الأواني في حوض معدني، وتوليت أنا شخصيًّا مسؤولية الذهاب إلى البئر لسحب المياه. غارت مني أختي بسبب هذا؛ فقد تخيلت أنها مهمة مرفهة، وأكثر متعة من المسح أوترتيب الفراش. لا يمكن إنكار أن مهمتي كانت أكثر غرابة من المهام الأخرى، خاصة في الأيام الأولى ولهذا السبب أصررت على أن أقوم بها. ولكن يبهت بريق المغامرة سريعًا، وأكتشف أنه عمل شاق للغاية وممل. إن المياه ثقيلة ويبدو أننا نحتاج إلى الكثير منها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قضينا أنا وأختي، على عكس أمي، كثيرًا من الوقت بعيدًا عن المطبخ. أمضينا أغلب كل نهار على الشاطئ. كان هناك مرفأ قوارب هناك، وقد أوشك على أن يتحول لكهف نظرًا إلى عدم استخدامه للعديد من الأعوام. كانت تشع منه رائحة سيئة، ومثيرة للاشمئزاز قليلًا كما لو أن الحيوانات أو ما هو أسوأ استعملوه كمرحاض في مرحلة ما في الماضي. وعلى الرغم من الرائحة المنفرة لنا، وعلى الرغم من أن الشاطئ كان دائمًا مهجورًا، فإننا كنا نحب أن نخلع ملابسنا في خصوصية معًا. ولهذا السبب كنا نذهب إلى أماكن بعيدة ونغطي أجسامنا بالفوط بعضنا ببعض إلى أن نصل إلى عتبة المبنى ونركض على صخور المرو الذهبية حتى نلمس مياه البحر، «لوخ سيلي» والمعروفة أيضًا بـ»بحيرة الظلال» كما أخبرتني أختي التي كانت متيمة بهذه المعلومة. وأضافت أيضًا أنها كانت واحدة من اثنين من الأودية الخلالية الموجودين في «أيرلندا». لم تشكل هذه المعلومة أنها وادي خلالي أي شيء بالنسبة إليَّ، وأما بالنسبة إلى الظلال لم أكن على دراية كفاية بها. ما كنت أتذكره بوضوح عن المياه هو صفاءها الكريستالي. كان لون المياه مائلًا للأخضر حين تنظر إليها من مسافة قصيرة، أما إذا نظرت إليها من منزل خالتي في يوم جميل فسترى لونًا فيروزيًّا رائعًا. بدت كما لو أنها جوهرة عظيمة تزين التلال. ولكن كان لونها صافيًا مثل الزجاج وأنت بداخلها تستحم. كان وجهي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالكاد يلامس السطح وأنا أسبح بها. أفتح عيني وأنظر تحتي إلى الأرض الرملية، وإلى نجمة البحر التي تزورني هنا في بعض الأحيان، وإلى الكابوريا الصغيرة السريعة هناك في المياه الضحلة التي عامت فيها أسراب سمك «المنوة» وتنقلت من مكان إلى آخر؛ تحركها غريزتها في البقاء بداخل الجموع. كنت دائمًا ما أقضي وقتًا طويلًا هناك، حتى في أبرد الأيام، وحتى عند سقوط زخات الأمطار حول الصخور. كنت دائمًا ما أخرج من المياه جسمي وروحي منتعشين. أتفهم الآن عندما أتذكره لماذا يعتقد البعض أنه مقدس. كانت «لوخ سيلي»، بالنسبة إليَّ، مياهًا مقدسة.

نمضي الأمسيات مع العائلة؛ ونتحرك بالسيارة لنشاهد العجائب البعيدة مثل «بورت سالون» أو«داونينز». ونقضي الليالي نفتش عن السعادة، ونزور أصدقاءنا الذين لا حصر لهم دون أي ترتيب، ونشرب الشاي، ونلعب معهم.

استمر هذا النظام طوال مدة العطلة باستثناء يومين: فنقوم برحلة حج إلى بئر «دون» في يوم أحد ما، وفي يوم ما خلال الأسبوع نذهب إلى «ديري» والتي تبعد مسافة ثلاثين ميلًا لنتسوق.

تكمن متعة خالتي في زيارتها لبئر «دون». كانت هي المناسبة الوحيدة التي رافقتنا فيها خلال الطريق، بخلاف ذهابنا معنا إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قداس الكنيسة حتى ولو كنا ندرك أنها تود لو رافقتنا كل يوم. ولكنها أصرت على الذهاب إلى بئر «دون». تبدأ في التلميح إلى الذهاب منذ اللحظة الأولى لوصولنا منزلها. تقول مثلًا إن: «عائلة آل «جالاجرز» زارت البئر يوم الأحد». وتضيف: «ولم تكن مزدحمة». ثم لا تغير ثيابها يوم الأحد بعد القداس، وترتدي مريلة غاية في الأناقة وتؤدي المهام الصباحية بطريقة معينة ولائقة بسيدة؛ فقد كانت تمشي على أطراف أصابع قدميها إلى الحظيرة، وترفرف يديها ناحية الدجاج.

ننطلق في الثانية ظهراً، وتجلس خالتي معي أنا وأختي على المقعد الخلفي للسيارة. اختلطت مشاعر الإهانة مع مشاعر الخزي في قلبي بسبب رؤيتي معها في العلن. داهمني شعور مثل الذي يصاحبني عند ممارسة الشعائر الدينية والتفاخر بها. لم أتحمل منظر المواكب، والوفود، واحتفالات القداس الخادعة. كان قلبي يميل إلى الطائفة البروتستانتية، وقد كان ليناسبني بأكثر من طريقة أن أنتمي إليها. ولكنني لم أفعل ذلك. وها أنا ذاهبة إلى بئر «دون» مع خالتي، والديَّ المتملقين، وأختي المُحرجة.

ظهرت البئر من مسافة بعيدة، وكانت قد زينتها قطع من القماش. أعلنت مجموعة كبيرة من العصا، وقطع قماش زاهية اللون مربوطة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليها عن وجود البئر وأضفت عليها جوًّا من الوثنية وعدم الجدية. ولكن لم يكن الأمر هينًا، بل كان جادًّا جدًّا بالفعل. كان علينا أن نخلع أحذيتنا بمجرد أن تركنا سيارتنا الآمنة. الألم! يا له من شيء مؤلم ما شاهدناه أمامنا! فلم يقتصر الأمر فقط على أن نمشي عراة الأقدام على الأرض الصخرية ولكن كان علينا أن نشاهد أقدام الجميع: الكبار، ووالديَّ، وخالتي تُكشف للعلن دون أي ذرة خجل. كانت أقدام الكبار بشعة، فقد كانت ضخمة وصفراء، ولها قرون وأظافر غارزة في الأصابع، وملتوية ومعذبة إثر الأحذية الطويلة غير المناسبة لمقاسهم، أو عدم ارتداء الأحذية من الأساس. ومما زاد الطين بلة، أن أمي وخالتي تمتلكان دوالي في أقدامهما، ودوائر أرجوانية بارزة في البشرة الصفراء بشكل بشع. كان يجب علينا دون شك أن نلف حول البئر عددًا معينًا من المرات، على الأغلب ثلاثة وكان علينا أن نؤدي الصلوات بصوت عالٍ في الهواء. شعرنا بالذل في هذه اللحظة مثلما كان سيشعر أي شخص في موقفنا. ثم ابتهلت أمي بسلسلة طويلة من الصلوات إلى القديس «كولومبا»، والتي كان علينا أن نسمعها ونتجاوب معها بآلاف الصرخات من العار وندعو «صلي لنا!». إن الجزء الوحيد المحتمل في هذه الرحلة الاستكشافية هو ما يحدث مباشرة بعد ذلك، عندما نشتري هدايا تذكارية من كشك له مظلة صغيرة لها ألوان مبهجة تليق أكثر بمكان مثل «براي» أو«بندروان»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليس هذا المكان الكئيب. وقفنا هناك نتفحص البضاعة المعروضة: سبح، وتماثيل صغيرة، وميداليات، وكور ثلج زجاجية. عدنا مرة أخرى إلى دورنا الاستهلاكي في الشراء أم كان هذا شعوري وحدي؟ ظننت أن أختي تراودها نفس مشاعري حيال الأمر كله. وداهمتني السعادة بسبب ذلك لدقائق قليلة. كنا دائمًا ما نختار نفس الهدايا التذكارية، وبالأخص كور الثلج الزجاجية. ما زلت أملك واحدة، لها خلفية زرقاء، والآن بهت لونها قليلًا، وبها أشكال أقزام وعش الغراب تحت الزجاج، وعلى قاعدتها الخشبية طُبعت «صليت لك في بئر «دون» بأحرف سوداء. اشتريتها هدية لصديقتي المفضلة «آن براين»، ولكن لم أمتلك الشجاعة الكافية لأعطيها إياها حين عدت إلى «دبلن». ولهذا ظلت كرة الثلج الزجاجية في غرفتي لسنوات حتى انتقلت إلى ألمانيا للدراسة فأخذتها معي، كتذكار ولكن ليس لبئر «دون» ولكن لشيء لا أعرفه.

ذهبنا إلى «ديري» من دون خالتي. تسوقنا وأكلنا السجق والفاصولياء في محلات «ولورث». استمتعت بالرحلة إلى «ديري»؛ فقد كانت أبرز ما حدث خلال العطلة بالنسبة إليَّ.

صافحنا يد خالتي في الشارع وودعنا بعضنا بعضًا في نهاية الأسبوعين. ظهرت علامات الحزن على وجهها في هذه الأوقات، وطالما بكت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في صمت في كل مرة كنا نصعد فيها إلى السيارة ونحن عائدون. كانت أمي تقول:

- لن نشعر بالغياب حتى تقترب احتفالات عيد الميلاد. سيأتي الصيف قريبًا ولن نشعر بطول المدة!

تتأثر خالتي بكل هذا الكلام، ونتأثر جميعًا بما فيهم أنا. أصعد إلى المقعد مرتبكة، وعلى الرغم من أنني أردت البكاء فإنني لم أفكر إلا في تعاستي. أردت البكاء لأنني لم أرد أن أترك الريف، والنهر، والماء النقي وليس بسبب تركي لخالتي. وبصرف النظر عن كل ذلك، إلا أنني حولت طاقتي كلها لكره خالتي لأنها لم تتبع قاعدة أخرى متعارف عليها وهي أن الكبار لا يبكون.

رفقت أختي بخالتي؛ فقد كانت تضحك بلطف بعد أن ننطلق على الطريق وتقول:

- مسكينة العجوز آني!

ولكنني لم أستطع أن أضحك، لم أستطع أن أسامح خالتي إطلاقًا، لأنها تبكي ولأنها هي، ولأنها لم تكن مثلنا.

كان هناك سبب بسيط واحد لكرهي لها؛ بسيط لدرجة أنني فهمته بنفسي عندما كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري. كنت أشبه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خالتي في الشكل. كنت دائمًا أسمع من الناس، والأقارب بمجرد أن يروني في الوادي:

- أنتِ صورة طبق الأصل من خالتك «آني»!

أعلم الآن حين أنظر إلى صورها، وأنظر إلى نفسي في انعكاس الزجاج أن هذا الشبه لم يكن بالأمر السيئ. كان لديها وجه مقبول مثلما هو الحال مع أغلب الوجوه. ولكنني لم أدرك هذا في سنين طفولتي ولا سنين المراهقة. كل ما كنت أعرفه أنها لم تبدو طبيعية. كان لديها شعر مفرود غير مموج، وقصير لدرجة أنه يصل إلى آخر العنق، على عكس كل النساء اللاتي عرفتهن في ذلك الوقت (ولكن يشبه قصة شعري الآن). كان لديها حواجب كثيفة غير مهذبة، ولم تضع أحمر الشفاه أو البودرة حتى ولو ليوم الأحد أو حتى في أثناء زيارة بئر «دون». وعلى الرغم من أنه كان من غير المقبول ألا تتزين النساء في هذا الوقت، كان أمرًا جريئًا أن يكون شعرك مفرودًا وأن ترتدي حذاء برباط. عفى الزمن على طريقة لبسها بالرغم من أنها كانت تعيش في مكان من المفترض أنه لا يتبع أي موضة حديثة. بدت مثل المسخ بالنسبة إلى عيني اللتين اعتادتا معايير المدينة. ولهذا كانت تنتابني القشعريرة وأرتبك في رعب حين يقول لي أحدهم :

- ألا تشبهين خالتك؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم أستطع أن أغير من وجهي، ولم أستطع أن أرى أنني أشبهها ولو قليلاً.. وكيف لوجه طفلة في العاشرة أن يشبه امرأة في الخمسين من عمرها؟ كبرت وأنا أكره شكلي ونقلت هذا الكره بمنتهى السهولة والحتمية إلى خالتي.

زرت «باليترا» وحدي عندما كنت في الحادية عشرة وشبه انتهيت من العطلات العائلية، ولكن ليس لزيارة خالتي ولكن لأدرس في مدرسة أيرلندية تم بناؤها للتو في المنطقة. قصدت ألا أقيم مع أي أحد من أقاربي الكثر، فقد أردت أن أبعد تمامًا عن كل الاتصال غير الضروري مع الماضي الخاص بي، وأقمت مع عائلة لم أرها من قبل قط.

وعلى الرغم من أنني أحببت الجو الصارم والمرح للمدرسة، فإنها تسببت في مشكلات لي. فمن ناحية، كنت ابنة أحد رواد الكنيسة الأصليين للمكان، فقد كنت أنا نفسي واحدة من السكان الأصليين تقريبًا. ومن ناحية أخرى، كنت معروفة هناك بال»دارسة»: أحد الأطفال من «دبلن» أو»ديري» الذين هبطوا على «باليترا» مثل سيل من الألعاب النارية في يوليو، والذين تصرفوا كما لو أنهم يملكون المكان، وتجنبوا بشكل أو بآخر السكان الأصليين.

كان سيكون الأمر صعبًا للغاية، حتى لو أردت، أن أكون شخصًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسطيًّا بين كوني «دارسة» ودوري الآخر الذي يتمثل في كوني ابنة أخت أحد السكان القرويين «السذج»، والذين ربما كان أولادهم رفقائي في اللعب وأنا صغيرة ولكن الآن كانوا مملين جدًّا، وساذجين جدًّا، وغرباء للغاية لأنجذب إليهم على الإطلاق. لم أبذل أي مجهود لأقوم بالدورين خلال هذه الفترة. تعاملت مع الموقف من خلال تجاهلي التام لأقاربي، والإلقاء بنفسي تمامًا في حياة «الدارسة». لم يكترث أقاربي على ما يبدو لتصرفي، وحتى لو اهتموا فلا يوجد شك أن لديهم ما يكفيهم من تلميحاتهم الخفية وأعرافهم كما هو الحال معي.

نقضي الأمسيات على الشاطئ عندما يكون الجو مناسبًا ولم تمطر بغزارة. كان نفس الشاطئ الذين لعبنا بجواره أنا وأختي. تمشى هناك من يريد السباحة هناك من المدرسة في صف متعرج مثل جلد التمساح. أحببت السباحة ولم أفوت قط أي فرصة للذهاب إلى الشاطئ.

كانت العقبة الوحيدة في الذهاب إلى هناك هو أنه كان عليَّ أن أمر بجانب بيت خالتي الذي كان يطل علي الشاطئ. لم تضايقني في أول أسبوع، فقد كانت على الأغلب تظن أنني سأزورها قريبًا. ولكن على الرغم من أن أمي حذرتني أنه يجب عليَّ أن أقوم بهذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزيارة مبكرًا وأعطتني حتى غطاء للرأس لأعطيه إياها، فإنني ماطلت كثيرًا. بدأت خالتي تستلقي وهي تنتظرني بعد أسبوع، وبدأت في أن تجلس على كرسيها الصخري أمام الباب وتنظر إليَّ وهي تأمل في أن أزورها. كنت أومئ برأسي وأحييها كما يفعل كل شخص أقابله، وأكمل طريقي.

وذات مساء، كان المعلم المسؤول عن متابعة المجموعة يمشي بجانبي وبجانب بعض الأصدقاء. وعلى الرغم من أنني كنت أشعر بالفخر، فإنني بداخلي شعرت بالهزيمة حين لمحتني خالتي في الشارع ونادت اسمي بصوت هادئ: «ماري، ماري!» أومأت برأسي وأكملت طريقي. نظر إليَّ المعلم نظرة غريبة وقال:

- أتتحدث إليكِ يا «ماري»؟ هل تريد أن تتحدث إليكِ؟

فرددت عليه والخزي يتملكني:

- لا أعرفها. من هي؟

فقال لي:

- «آني»، إنها «آني بونر».

ولم يُظهر أنه يعرف أكثر من هذا، ولكنني أراهن على أنه يعرف المزيد. يعرف أي شخص قضى في «باليترا» أكثر من يوم كل ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب معرفته، وبأي شخص أعني أي شخص غير أناني مثلما هو حال «الدارسين».

ما زالت خالتي على قيد الحياة، ولكن لم أرها منذ سنوات. لا أذهب أبدًا إلى «إنش أون» الآن، فأنا لا أحبها منذ أن أصبحت عصرية ومليئة بالبيوت الصغيرة ذات الطابق الواحد. كنت بدلًا من ذلك أذهب مع زوجي إلى «برشلونة»، والذي كان من سكان كاتالونيا الأصليين. يُدرس الإسبانية هناك بدوام جزئي في الجامعة ويدير مدرسة للطلبة الإسبان في «أيرلندا» خلال شهور الصيف. أساعده على البحث الشاق عن أماكن أولئك الطلبة، ولهذا فنحن لا نملك الكثير من الوقت للعطلة على الإطلاق.

إن خالتي ليست بصحة جيدة تمامًا. أصيبت بأزمة قلبية قبيل عيد الميلاد وكان يجب أن تخضع لعملية جراحية كبيرة في إقليم «دونيجال». قررت أن أزورها ولكن لم يسعفني الوقت مطلقًا. علمت أنها كانت عائدة إلى منزلها وقت عيد الميلاد قبل أن تخرج من المستشفى مباشرة. أتذهب إلى منزلها؟ أتذهب إلى منزلها الفارغ المطل على الطريق إلى «لوخ». أصابني الخبر بالهلع، وتفاجأت من نفسي. الله وحده يعلم لماذا داهمني هذا الشعور، فقد رأيت حالات أكثر حرجًا، ولكنَّ هناك شيئًا تحرك بداخلي. حادثت أمي هاتفيًّا وتساءلت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في غضب لماذا لا تستضيفها هي، لأسابيع قليلة. ولكن كانت أمي مصابة بداء النقرس، وتحاول أن تتحسن لأنها كانت تمشي بصعوبة. فقلت:

- حسنًا، يمكنها أن تأتي هنا!

ولكن لم يتحمس «خوليو» لذلك؛ فقد كان وقت عيد الميلاد هو الوقت الوحيد الذي يستطيع أن يرتاح فيه. تبدأ الحجوزات في يناير/ كانون الثاني، والتخطيط، والاجتماعات التي لا حصر لها، والمكالمات الهاتفية. وبجانب ذلك، فقد كان ينتظر ضيفًا: أخته «مونتسيرات». كانت صغيرة في الحجم، ولها بشرة داكنة، ومفعمة بالحيوية مثل عصفور الدوري، ويعشقها الأطفال. انتهى الأمر بأن ذهبت أختي لقضاء القليل من الأسابيع في «باليترا» حتى تتحسن خالتي. كانت أختي غير متزوجة، ومحاضرة لغة لاتينية في الثالوث، وتتمتع بمرونة في الإجازات فلا يوجد لديها أي مسؤوليات تربطها.

تنفست الصعداء، على أي حال لعدم حضور خالتي «آني» إلى منزلي. ما الذي كان ليفكر به جيراني المتزمتون في الضاحية؟ كيف كان سيتعامل «خوليو»، صاحب الدم الأرستقراطي؟ ما زلت أشعر بالخجل من خالتي، كما ترون. ما زلت أشعر بالخزي من نفسي. أشك أنني ربما أشبهها، وليس فقط في الشكل، فربما هناك بعض الشبه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العقلي أيضًا. هل تعليمي العالي، وزوجي الرائع، ولهجتي الفخمة مجرد محاولات للاختباء؟ هل أنا فعلًا بهذا الذكاء؟ ففي بعض الأحيان، أجد الحقائق تهرب مني مثلما تهرب العصا من تيار النهر عندما أجلس وأقرأ في منزلي ذي الواجهة الزجاجية وأنظر إلى سطح النهر الأيرلندي الصافي وأنا أحاول أن أتعلم شيئًا: قواعد لغة ما غريبة، أو أسماء الآلهة الحيثية، أو شيئًا من مثل هذا القبيل. أشعر ببقعة شيء ما في عقلي لا تسمح لأي معلومة بأن تتشربها خلايا مخي؛ كأنها كتلة من مادة ما بشعة: طرية وسميكة وداكنة مثل الزبدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner